أضواء على الرجز والرجاز
فى عصر بنى أمية

دكتـــورة
وفاء مصطفى أبو السعود
المدرس بقسم الأدب والنقد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
بالإسكندرية

أضواء على الرجز والرجاز
فى عصر بنى أمية

الرجز بحر من أبحر الشعر القديمة ، وقد أكثر الجاهليون من نظم القطع القصار فيه ، ويذهب بعض الباحثين [1] إلى أنه أقدم بحور الشعر ، حيث وجدوا أن الشعر نشأ متطوراً من الكلام المسجوع فقد وجد الناس السجع أولاً فتغنوا به . ورددوه فى حروبهم أفراداً وجماعات ، مصوراً لما يجيش فى صدورهم من حمية وحماس ، يشحذون به الهمم ، ويثيرون به النفوس . ورددوه فى عملهم اليومى ، وهم على الآبار يمتحون الماء أو فى الفلوات يسوقون الإبل ، يروحون به عن نفوسهم ، ويخففون بنغماته الحلوة ووقعه المريح ما يعانون من نصب وتعب .

وأخذ هذا السجع يتطور إلى السجع الموزون الذى كان الكهان والعرافون يتخذونه وسيلة تعبير لتنبؤاتهم وأحكامهم ، مثل قول الكاهن : " مصباحة مصباح ، وقوله صلاح ، ودينه فلاح ، وأمره نجاح ، وقرنه نطاح ، ذلت له البطاح ، ما ينفع الصياح ، لو وقع الذباح ، وسلت الصفاح ، وموت الرماح " [2] .

فقد تطور السجع نحو الكمال ، حتى استوت فقره رجزاً فكله من وزن مستفعلن مستفعل . وقد أعان السجع على هذا التطور عاملان : الأول : ملاءمته لهذه الحركات المنتظمة ، التى يلازمها ويرتبط بها . والثانى : الترفع الذى ينشأ عن

---

(١) من هؤلاء الباحثين انظر تاريخ الأدب العربى كارل بروكلمان نقله إلى العربية عبد الحليم النجار ج١ ص ٥١ الطبعة الخامسة دار المعارف .

(٢) الهجاء والهجاءون فى الجاهلية محمد محمد حسين ص ٥٦ دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت الطبعة الثالثة ١٣٨٩هـ - ١٩٧٠م وكذا أدب العرب فى عصر الجاهلية حسين الحاج حسن ص٢٥٠ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

طبيعة الموضوعات التى يعالجها ، وهى أسمى من الواقع المسف ، وأكثر تعلقاً بالخيال السابح والطرب المستخف الراقص ، الذى يدفع إلى نوع من النظام الموسيقى ، فى أدنى صوره إلى الكمال .

وعند ذلك فطن الناس إلى أصل من أصول النظم أخذوا أنفسهم به ، وهو تساوى الفقرة وتوازنها ، ثم راحوا يتسابقون فى حدود هذا القيد الجديد ، فقد استخدم الرجز فى نطاق محدود فكانوا يصطنعونه فى الحداء وعلى موارد الاستسقاء وفى الحماسة والمفاخرة فى أوقات الالتحام والحرب [1] . ثم استخدم بعد ذلك فى أغراض الشعر الأخرى ، كما أن أوزان الشعر تطورت منه مفردة مثله ثم مركبة . وهذه النظرية فى نشأة الشعر العربى قد اعترض عليها بعض الباحثين منهم الدكتور شوقى ضيف الذى ذهب إلى أن الرجز " أكثر أوزان الشعر شيوعاً فى الجاهلية ، إذ كانوا يرتجلون فى كل حركة من حركاتهم وكل عمل من أعمالهم فى السلم والحرب ، ولكن شيوعه لا يعنى قدمه ولا سبقه للأوزان الأخرى ، وإنما يعنى أنه كان وزناً شعبياً لا أقل ولا أكثر ... " [2] .

ومنهم أيضاً الدكتور عبد الله الطيب المجذوب الذى ذهب إلى " أن الرجز لا يمكن أن يكون أقدم أوزان العرب فى صيغته التامة ، ولابد أن تكون الأوزان الأول قد بدأت بصفة أقصر وأقل نظاماً منه . ولا يخدعنك ما يزعمونه من أنه مشتق من حركة الإبل فتتفاعل فى عقلك مسائل البيئة والطبيعة ؟ إلى غير ذلك من الاصطلاحات السيكلوجيّة المستحدثة فالرجز من أوتاد وأسباب كغيره من أوزان

---

(١) الأدب العربى فى صدر الإسلام وعصر بنى أمية أ . د . أحمد عبد الغفار عبيد ص ١١٠ ١٩٩٦م .

(٢) تاريخ الأدب العربى العصر الجاهلى شوقى ضيف ص١٨٦ دار المعارف .

العرب التى تدور كلها على " كم " المقاطع الطويلة والقصيرة ، وعلى هذا لا يكون خطه فى شبه حركة الإبل أكثر من حظها ولعله يكون خط الخَبَب – والخبب من أسماء المشيات التى تمشيها الإبل – أوفر منه " (١) .

ومع قيمة ما ذكره هذان الباحثان فإنهما لم يأتيا ببحر بديل لبحر الرجز تكون له أولية الأوزان فى الشعر العربى فلا يستطيع أحد أن يتصور أن هذه البحور التى ضَمَّها الشعر الجاهلى الذى وصل إلينا . قد نشأت جميعها فى وقت واحد فلابد أن تكون قد نشأت متطورة بالتدرج ، ونحن نعلم أن أقدم القوالب الفنيَّة عند العرب هو السجع الذى كان الكهان والعرافون يصوغون فيه كلامهم وأحكامهم والذى ينظر فى كلامهم يجد شيئاً من تفعيلة الرجز على نحو ما بينا .

وأغلب الظن أن الرجز هو البحر الوحيد الذى يتلاءم مع نظرية القدماء فى أولية الشعر والتى وردت عند ابن سلام : " لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل فى حاجته ... " (٢) .

ومما يؤكد ذلك أيضاً ما قاله الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى " أن الشعر الجاهلى قبل أن ينتقل على يد المهلهل بن ربيعة وامرىء القيس كان كله رجزاً ينطق الشاعر بالبيت أو البيتين فيما يعرض له من شئون الحياة " (٣) .

وهذا ما ذهب إليه الدكتور يوسف خليف من أن الشعر العربى بدأ رجزاً ثم تطور يقول : " بدأ الشعر العربى رجزاً متطوراً – فى أغلب الظن من السجع وساعدته سهولة هذا البحر وقرب متناوله من الشعراء وطواعيته لتشكيلات موسيقية

---

(١) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها عبد الله الطيِّب المجذوب ج١ ص٢٣٠ الطبعة الثانية ١٩٧٠م دار الفكر .

(٢) طبقات فحول الشعراء محمد بن سلام الجمحى تحقيق محمود محمد شاكر ص٢٦ .

(٣) الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى محمد عبد المنعم خفاجى ص١٩٧ الطبعة الأولى بمطبعة حجازى ١٣٦٨هـ – ١٩٤٩م .

متعددة على اتساع مجالاته فى المجتمع الجاهلى القديم ثم أخذت تتولد منه أوزان أخرى هى – فى أغلب الظن – أوزان البحور الصافية أحادية التفعيلة ... " [1] وقد ظل الرجز طوال عهد الجاهلية وحتى بعد الإسلام يلبى الحاجة فى الارتجال دون إطالة فيه .

والرجز – كما يرى الزبيدى فى تاج العروس [2] أسهل البحور على السمع وأبلغ أثراً فى النفس ولذا ترقى الكلام إليه من السجع ، فإذا علمنا هذا وعلمنا أن السهولة وبلوغ الأثر فى النفس ليس الأساس فيهما تفعيلة البحر وما فيها من أسباب وأوتاد وإنما الأساس فيهما العبارة الشعرية المصوغة وما ينطوى فيها من تآلف الحروف ومخارجها وتتابع مداتها وسكناتها وائتلاف الشكل والمضمون فى صورة فنيةٌ متكاملة ، وهذا أمر تتساوى فيه سائر البحور الطويلة منها والقصيرة والدليل على ذلك تلك القطع التى يمتلىء بها كتاب الأغانى والتى غناها المغنون وهى من بحر الطويل المركب من تفعيلتين ويضم وتدين مجموعين وثلاثة أسباب خفيفة . فإذا علمنا ذلك كله لزم أن نبحث عن أى البحور ملاءمة لصوغ القوالب الفنية المتطورة من النثر إلى الشعر بغض النظر عما فيها من مقاطع طويلة أو قصيرة . إننا لن نجد سوى بحر الرجز فهو أسهل البحور وأبلغها أثراً فى النفس ولذا ركبه الشعراء فى جميع العصور ومن أجل ذلك أطلق عليه العروضيون " حمار الشعراء " وهو مع ذلك أنسب البحور للتطور من الكلام المسجوع الذى يدخل فى دائرة النثر ، يؤكد ذلك ما رواه أبو الفرج فى الأغانى من أن الوليد بن يزيد صعد المنبر يوم

(١) الروائع من الأدب العربى العصر الجاهلى يوسف خليف ج١ ص١٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣م .

(٢) تاج العروس للسيد محمد مرتضى الزبيدى ج١ ص٣٦ طبعة دار ليبيا للتوزيع والنشر بنى غازى ، الجماهيريةٌ .

الجمعة وكان قد عزم أن يخطب الناس شعراً - فلما خطب اختار الرجز المزدوج لكلامه وهو لم يكن ليختار الرجز لو لم يكن أليق البحور بالكلام المسجوع الذى يألفه الناس عادة فى الخطب [1] .

وعلى هذا فإن القول بأقدمية الرجز فى تطور الشعر العربى وإن كان فرضاً فأغلب الظن أنه أقرب الفروض إلى الرجحان .

الشعر بين الرجز والقصيد :

بعد أن تبين لنا أن الرجز كان المرحلة الأولى التى بدأ بها الشعر العربى لأنه الوزن الشعرى الذى يستخدمونه حتى بعد ظهور القصيدة واستقرار تقاليدها الفنية حين تضطرهم ظروف الحياة اليومية إلى ارتجال الشعر ومن الرجز نشأت البحور العروضية الأخرى .

تعريف القصيدة :

إذا رجعنا إلى النقد العربى القديم ، فلا نكاد نعثر فيه على أى تعريف للقصيدة فنى أو غير فنى . لكننا لا نعدم أن نجد نتفاً فى هذا عند اللغويين والنحويين وأصحاب المعاجم .

يذهب أكثرهم إلى أن القصيدة من القصيد ، وهو ما تم شطر أبياته أو شطر أبنيته [2] . ويذهب الفراء إلى أن " القصيد " مأخوذ من المخ القصيد ، وهو المتراكم بعضه على بعض [3] أو المخ السمين الذى يتقصد (أى يتكسر) السمنة [4] .

---

(١) الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ج٦ ص١٢٥ دار احياء التراث العربى .
(٢) لسان العرب لابن منظور المصرى (مادة قصد) صادر بيروت ١٩٥٥م .
(٣) اعجاز القرآن للباقلانى أبى بكر محمد بن الطيب ٤٠٣هـ تحقيق السيد أحمد صقر ص٢٥٧ الطبعة الخامسة دار المعارف .
(٤) لسان العرب لابن منظور (مادة قصد) أيضا والمقصود بالسمين هنا الدسم .

أما سبب التسمية ، فقيل لأنه قصد واعتمد ، أو لأن قائله احتفل له فنقحه باللفظ الجيد ، والمعنى المختار . وقيل سمى الشعر التام قصيداً لأن قائله جعله من باله فقصد له قصداً ولم يحتسه حسياً على ما خطر بباله وجرى على لسانه ، بل روّى فيه خاطره واجتهد فى تجويده ، ولم يقتضبه [1] .

وقد تابع ابن رشيق أولئك فى تعريفاتهم وتعليلاتهم حين ذهب إلى أن اشتقاق القصيدة من " قصدت إلى الشيء إلى عملها على تلك الهيئة " [2] .

ويعد البيت الواحد من الشعر اللبنة الأولى للقصيدة لأنه جزء من القصيدة يحوى فكرة من أفكارها ويعبر عن معنى من معانيها وهو مكون من شطرين موزونين بتفاعيل مخصوصة جارية على مقاييس العرب فى أوزان شعرها ويكون جاريا فى إطار ما قبله وما بعده فى الوزن والقافية وهناك مسألة أخرى فى القصيدة شغلت اللغويين القدامى وشارك فيها بعض النقاد هى عدد الأبيات التى تستحق أن تحمل اسم قصيدة . ذهب الأخفش إلى أن القصيدة ما كانت على ثلاثة أبيات فصاعداً وما دونها لا يسمى قصيدة . فخالفه ابن جنى وقال إن القصيدة ما جاوزت أبياتها الخمسة عشر ، وما دون ذلك " قطعة " [3] فإذا بلغت الأبيات ثلاثة إلى ستة فهى " قطعة " أو " مقطوعة " وبهذا الاعتبار تكون القطعة أو المقطوعة أقل من القصيدة والتزاماً بالمقاييس العربية فى الأوزان الشعرية لابد فيها من اتحاد الوزن والقافية . يقول ابن رشيق : " والبيت من الشعر كالبيت من الأبنية قراره

(١) المصدر نفسه (مادة قصد) .

(٢) العمدة فى صناعة الشعر ونقده تأليف أبى على الحسن بن رشيق القيروانى المتوفى سنة ٤٦٣هـ تحقيق وشرح مفيد محمد قميحة ج١ ص١٣١ الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م دار الكتب العلمية بيروت - لبنان .

(٣) لسان العرب لابن منظور (مادة قصد) وكذا خصوبة القصيدة الجاهلية ومعانيها المتجددة (دراسة وتحليل - ونقد) محمد صادق حسن عبد الله ص٦٦ ، ٦٧ دار الفكر العربى .

الطبع وسمكه الرواية ودعائمه العلم وبابُه الدُّرْبَة وساكنه المعنى ولا خير فى بيت غير مسكون وصارت الأعاريض والقوافى كالموازين والأمثلة للأبنية أو كالأواخى والأوتاد للأخبية فأما ما سوى ذلك من محاسن الشعر فإنما هو زينة مستأنفة ولو لم تكن لاستغنى عنها " (١) .

وذهب الفراء إلى أن القصيدة ما بلغت العشرين بيتاً فأكثر (٢) .

وذهب ابن رشيق إلى أنه " إذا بلغت الأبيات سبعة فهى قصيدة .... ومن الناس من لا يعد القصيدة إلا ما بلغ العشرة وجاوزها ولو ببيت واحد " (٣) .

والرأى الراجح لدى أكثر علماء العروض أن الأبيات إذا بلغت سبعة فصاعداً فهى " قصيدة " بشرط أن تكون من بحر واحد ولها رويٌ واحد .

واشتراط الوزن فى القصيدة العربية يعنى اتحاد جميع أبياتها فى كل الأحكام الجائزة واللازمة والممتنعة وفى عدد التفاعيل العروضية .. لكن بعض الشعراء المعاصرين نظموا بعض قصائدهم من بحور متعددة ويطلق النقاد على هذا اللون من الشعر " مجمع البحور " ولا يعتبر بعض الباحثين مثل هذا اللون متعدد الوزن من القصائد . وقد حرر بعض المعاصرين الشعر من الالتزام بالتفاعيل العربية وأطلقوا عليه " الشعر الحر " وهو : " الكلام الموزون على بحور الشعر العربى الستة عشر ، المتحرر من قيد الالتزام بعدد ثابت من التفعيلات فى البيت الواحد ، والمتحرر كذلك من الرويّ الواحد فى القصيدة كلها " (٤) .

كما حرر بعضهم القصيدة من القافية وسموا ذلك شعراً مرسلاً وفيه يتخلى

---

(١) العمدة فى صناعة الشعر ونقده تحقيق مفيد قميحة ج١ ص٩٠ .
(٢) اعجاز القرآن للباقلانى تحقيق السيد أحمد صقر ص٢٥٧ .
(٣) العمدة فى صناعة الشعر ونقده تحقيق مفيد محمد قميحة ج١ ص١٣٤ .
(٤) أوزان الشعر العربى وموسيقاه أ . د . أحمد عبد الغفار عبيد ص٥٤ ١٩٩٦م وكذا فصول فى الشعر ونقده شوقى ضيف ص٥٠ الطبعة الثانية دار المعارف .

الشاعر عن التزام حرف الروى الواحد فى القصيدة مع الالتزام بوحدة الوزن فهو لا يختلف عن النمط التقليدى المألوف إلا فى اطلاق القافية فى المقطوعة الشعرية أى جعلها حرة غير مقيدة بروىٍّ واحد (١) .

وكما قلت فإن الالتزام بالوزن والقافية يعد أساساً من الأسس الضرورية لبناء الشعر . والقصيد ما تم شطرا أبياته واستقاما فلم يكن مشطورا ولا منهوكا ولا مضطرب الوزن بكثرة الزحاف والعلل " والشطر حذف نصف البيت ، والنهك حذف ثلثى البيت " (٢) . فما جاء على الأوزان القصيرة والمضطربة لا يسمى "قصيدا " إلا على سبيل التجوز .

والرجز يطلق على ما يقابل القصيد ويخالفه من كل كلام موزون من بحر " الرجز " خاصة وهو بحر من بحور الشعر العربى وزنه " مستفعلن " ست مرات ، ثلاث فى الشطر الأول وثلاث فى الشطر الثانى من البيت (٣) .

يقول ابن جنى : كل شعر تركب تركيب الرجز يسمى " رجزا " .

ويقول الأخفش : الرجز عند العرب كل ما كان على ثلاثة أجزاء وهو الذى يترنمون ويتغنون به فى عملهم وسيرهم ويحدون به ، وقد اختلفوا فيه : فزعم قوم أنه ليس بشعر ... وأن مجازه مجاز السجع ، وهو يتفق للصبيان والضعفاء من العرب ، ومثل هؤلاء لا يقال لهم شعراء ، فقد يتسق لهم الرَّجزُ الكثير عفواً بغير مجهود حتى إذا صاروا إلى الشعر انقطعوا . وإنما جعل الرجز من الشعر تتابع

---

(١) أوزان الشعر العربى وموسقاه أ . د . أحمد عبد الغفار عبيد ص ٥٢ .
(٢) فن الموسيقى فى الشعر العربى (دراسة عروضية أدبية لشعرنا العربى قديما وحديثا) محمود على السمان ج١ ص٥٠ الجهاز المركزى للكتب الجامعية ١٩٧٧م – ١٩٧٨م .
(٣) المصدر نفسه ص٧٤ .

أبياته ، وجمعُ النفس عليه واستعماله فى المفاخرات والمماتنات ونحوها ، وأنه الأصل فى اهتدائهم إلى أوزان الشعر [1] . وهو عند الخليل شعر صحيح ، وفى تاج العروس : لو جاء من الرجز شىء على جزء واحد مثل القصيدة المشهورة :

مـــوسى المطر * غـــيث بكر ثم انهـــمـــر * ألـــوى المـــدر
كم اعـتـســر * ثم ايتـســر وكم قـــــدر * ثم غـــفـــر[2]

لاحتمل الرجز ذلك لحسن بنائه ، وزعم الخليل أنه ليس بشعر وإنما هو أنصاف أبيات وأثلاث ، والخليل لا يرى مشطور الرجز ومنهوكه شعراً ، وإنما هو من قبيل السجع [3] .

وكان ابن رشيق يرى أن الأرجوزة لا تسمى قصيدة طالت أم قصرت ، ولا تسمى القصيدة أرجوزة إلا أن تكون من أحد أنواع الرجز فنجده يقول : " قد خص الناس باسم الرجز المشطور والمنهوك وما جرى مجراهما ، وباسم القصيد ما طالت أبياته ، وليس كذلك ، لأن الرجز ثلاثة أنواع غير المشطور والمنهوك والمقطع : فأما الأول منها فنحو أرجوزة عبده بن الطيب :

باكـــرنَي بُســـخـــرةٍ عـــواذلي وَعَذْلـهـنَّ خـــــبل مـن الخـــــيل

والنوع الثانى نحو قول الآخر :

القلب منهـا مـســتـريحٌ ســالم والقلب منى جـــاهدٌ مـــجـــهـــود

---

(١) تاريخ آداب العرب مصطفى صادق الرافعى ج٢ ص٣٠٩ الطبعة الثانية ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م .
(٢) تاج العروس ج١ ص٣٦ .
(٣) الفائق للزمخشرى ج١ ص٤٧٨ ، ٤٧٩ .

والنوع الثالث قول الآخر :

قـــــــد هـاج قـلـبـى مـنـزلٌ من أم عـــــمـــــرو مُقـــــفـــــرُ

فهذه داخلة فى القصيدة ، وليس يمتنع أيضا أن يسمى ما كثرت بيوته من مشطور الرجز ومنهوكه قصيدة " [1] .

وهو يرى أيضاً أن القصيد يطلق على كل الرجز ، أما الرجز فلا يطلق على كل قصيد أشبه الرجز فى الشطر ، ويقول النحاس : القريض عند أهل اللغة العربية الشعر الذى ليس برجز [2] .

لقد كانت القصيدة العربية حدثا فنيا جديدا ظهر فى العصر الجاهلى بعد أن بدأ الشعر بالبيت والبيتين ينظمهما الشاعر تعبيراً عن مشاعره وكانوا يستعملون فى ذلك بحر الرجز لسهولته وخفته ويسمون القطعة منها أرجوزة والجمع أراجيز ، والأرجوزة تكون من الرجز المشطور ، أى أنها يلتزم فيها بالتقفية فى سائر الأشطر ، مثل قول الحطيئة :

الشعر صعبٌ وطويلٌ سُلَّمُهْ

إذا ارتقى فيه الذى لا يَعْلَمُهْ

زَلَّتْ به إلى الحضيض قَدَمُهْ

يُريد أن يعربه فيعجمه

ولم يَزَلْ مِنْ حَيْثُ يأتى يَحْزَمُهْ [3]

(١) العمدة فى صناعة الشعر ونقده تحقيق مفيد قميحة ج١ ص١٣٠ ، ١٣١ .
(٢) المصدر نفسه ص١٣٢ .
(٣) ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت (١٨٦ - ٢٤٦هـ) تحقيق د. نعمان محمد أمين طه ص٢٩١ الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م الناشر مكتبة الخانجى بالقاهرة وكذا أوزان الشعر العربى وموسيقاه أ . د . أحمد عبد الغفار عبيد ص٢٥ ١٩٩٦م .

أما قصيدة الرجز تكون من الشعر ذى الشطرين وتسرى عليها أحكام القافية المعروفة للشعر العربى .

وقد أكثر العرب من استخدام المراجزة فى عصر صدر الإسلام فى التعبير عن الصراع الذى كان بين المسلمين وخصومهم من المشركين . ومن أمثلة ذلك ما حدث فى موقعة خيبر إذ حاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين اليهود فى حصنهم بضعَ عشْرةَ ليلة فلما طال الحصار ، وكان لا مفر من القتال خرج مرحبُ اليهودى من حصنهم قد جمع سلاحَه ، يرتجز ويقول :

قد علَمت خيبرُ أني مَرْحَبُ شاكي السلاحِ بَطَل مُجَرَّبُ (١)
أطعنُ أحياناً وحيناً أضرِبُ إذا الليوثُ أقبلت تَخَرَّبُ (٢)

إن حماى للحمى لا يقرب

وهو يقول من يبارز ؟ فأجابه كعب بن مالك :

قد علَمت خيبرُ أني كعبُ مُفَرِّجُ الغُمّى جريءٌ صَلْبُ (٣)
إذا شبت الحروبُ تلتْها الحربُ معي حُسامٌ كالعقيق عَضْبُ (٤)
نَطَوْكم حتى يذِلَّ الصعبُ نُعطىَ الجزاءَ أو يفيء النَهبُ

بكفٍّ ماضٍ ليس فيه عَتْبُ (٥)

---

(١) الشاكى السلاح : التام السلاح .
(٢) تحرَّب : أى مغضبة .
(٣) الغمى : الشدة والكرب .
(٤) العقيق : شعاع البرق . غضب : قاطع .
(٥) مختصر سيرة ابن هشام (السيرة النبوية) اعداد محمد عفيف الزغبي مراجعة عبد الحميد الأحدب ص٢٠٧ ، ٢٠٨ الطبعة السادسة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م دار النفائس بيروت وكذا الأدب فى صدر الإسلام وعصر بنى أمية أ . د. أحمد عبد الغفار عبيد ص٢٦ ١٩٩٦م ،

ونجد أن أول من نقل الشعر العربى من طور الاراجيز والمقطعات الصغيرة إلى مرحلة القصيد " المهلهل " [1] فهو أول من قصد القصائد وقال فيها الغزل وأول من هلهل نسج الشعر أى رققه وهذبه وشعره من أعلى طبقات شعر المتقدمين .

وقد انتهت القصيدة العربية إلى صورتها الأخيرة التى عرفت لها فى العصر الجاهلى والتى مثلتها " المعلقات " خير تمثيل . وقد جارى الشعراء هذه الصورة الشعرية فى قصائد كثيرة جمعها أبو زيد الأنصارى ٢١٥هـ فى كتابه ... " جمهرة أشعار العرب " نقلاً عن أستاذه المفضل الضبى ١٦٨هـ صاحب " المفضليات " وهى : السموط ويطلق عليها المعلقات والمشهورات والمذهبات والمجمهرات والمنتقيات [2] . كما نجد أن بعض الشعراء الجاهليين كانوا يجمعون بين الرجز والقصيد من هؤلاء الشعراء امرؤ القيس وطرفة بن العبد ولبيد وكان الشماخ بن ضرار الذبيانى من أرجز الشعراء على البديهة .

وإذا كان المهلهل ابن ربيعة أول من قصد القصائد فإن أول من أطال الرجز وجعله كالقصيد ثم سلك الناس بعده طريقته وتكاثر من يحاكونه هو الأغلب العجلى[3] ، وهو شاعر مخضرم عاش حتى الفتوحات الإسلامية وكان من الذين

---

(١) هو امرؤ القيس مهلهل بن ربيعة بن الحارث بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب وهو مهلهل الشاعر الفارس المشهور وهو خال امرئ القيس بن حجر الكندى الشاعر الأشهر . أول المراقسة انظر شرح ديوان امرىء القيس ومعه أخبار المراقسة وأشعارهم فى الجاهلية وصدر الإسلام تأليف حسن السندوبى ص٢٣١ الطبعة السابعة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٣م المكتبة الثقافية بيروت - لبنان وكذا العمدة لابن رشيق تحقيق مفيد قميحة ج١ ص١٣٥ .

(٢) تاريخ الأدب العربى كارل بروكلمان ترجمة عبد الحليم النجار ج١ ص٦٧ وما بعدها .

(٣) هو الأغلب بن جشم بن سعد بن عجل بن لجيم بن صعب بن على بن بكر بن وائل وهو أحد المعمرين ، عمر فى الجاهلية عمرا طويلا ، وأدرك الإسلام فأسلم ، وحسن اسلامه وهو أرجز الرجاز ويقال : إنه أول من رجز الأراجيز الطوال من العرب واستشهد فى موقعة بنهاوند فقبره هناك فى قبور الشهداء انظر فى ترجمته الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى اشراف محمد أبو الفضل ج٢١ ص٢٩ وكذا خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب عبد القادر بن عمر البغدادى تحقيق عبد السلام محمد هارون ج٢ ص٢٣٩ مكتبة الخانجى بالقاهرة وكذا طبقات الشعراء محمد ابن سلام الجمحى السفر الثانى ص٧٣٧ وكذا الشعر والشعراء أبى محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة ج٢ ص٥١١ دار الثقافة بيروت - لبنان وكذا =

ساروا إلى العراق وشارك فى موقعة بنهاوند واستشهد فيها ويقول عنه ابن قتيبة : " هو أول من شبّه الرجز بالقصيد وأطاله ، وكان الرجزُ قبله إنما يقول الرجل منه البيتين أو الثلاثة ، إذا خاصم أو شاتم أو فاخر " (١) .

وللأغلب العجلى أراجيز ، وصل إلينا بعضها ، منها أرجوزة فى هجاء سجاح متنبئة بنى تميم ، روى جزءاً منها أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه الأغانى(٢) ، وأخرى روى البغدادى أبياتاً منها فى الخزانة وأغلب الظن أنها مطلع غزلى لأرجوزة طويلة (٣) .

على أننا لابد أن نكون حذرين فيما نسب إلى الأغلب العجلى من أراجيز ، فقد كان الأصمعى لا يعرف له من الرجز سوى اثنتين ونصف ، وقال : " كان ولده يزيدون فى شعره حتى أفسدوه " (٤) .

وماوصل إلينا من أراجيز الأغلب - إن صحت نسبتها إليه - يدل على أنه سهل اللغة والأسلوب ولكن فى رصانة وصحة معنى ومما يؤكد ذلك ما قاله البغدادى فى الخزانة يقول : " وهو أرجز الرجاز وأرصنهم كلاما وأصحهم معانى " (٥) .

= الاصابة فى تمييز الصحابة ابن حجر العسقلانى أحمد بن على حققه على محمد البجاوى القسم الأول ص٩٨ دار نهضة مصر للطبع والنشر الفجالة - القاهرة وكذا العمدة لابن رشيق تحقيق مفيد قميحة ج١ ص١٣٥ .

(١) الشعر والشعراء أبى محمد عبد الله بن قتيبة ج٢ ص٥١١ وكذا خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادى ج٢ ص٢٣٩ .

(٢) الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ج١٨ ص١٦٥ .

(٣) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادى ج٢ ص٢٣٧ .

(٤) الموشح لأبى عبيد الله محمد بن عمران المرزبانى ص١٩٣ المطبعة السلفية القاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٨٥هـ .

(٥) خزانة الأدب للبغدادى ج٢ ص٢٣٩ .

ومما يؤكد ذلك أيضاً قوله :

الْحِلمُ بَعْدَ الجـــهلِ قــد يثــوبُ وفى الزمـــان عـــجبٌ عـــجـــيبُ
وعـــبـــرةٌ لو ينفع التَجـــريبُ واللبُّ لا يشـــــقى به اللبـــــيبُ
والمرء مُحصىً سَعـيـه مـرقـوبُ يَهـــزمُ أو تعـــتـــاقـــه شَعُوبُ [1]

والذى يبدو من أراجيزه الطوال أنها فى الهجاء لم تتعدّه إلى أغراض الشعر الأخرى . وإنما الذى اتجه هذا الاتجاه فى الرجزْ هم رُجَّاز العصر الأموى فقد استفحل أمر الرجز عندما استقر العصر الأموى وظهرت طبقة من الشعراء اشتهروا باسم " الرُّجاز " وكان أكثر هؤلاء ، كما يستدل من الأخبار ، وكتب الأدب بالعراق . والحاجة كانت ماسة هنالك إلى أنواع الشعر التى تلقى على البديهة أو الارتجال فى مقام الرَّد والمُنافرة والمفاخرة . والدليل على ذلك ما تجده من كثرة الرجز فى شعر جرير على أن الذوق العام كان يفضل القصيد على الرجز لاتساع مجال القول فيه ، ولأبهته وجلاله ، ولذلك كان الراجز دون منزلة الشاعر [2] . ومما لا شك فيه أن هذا قد أدىّ إلى شعور بالنقص بين الرجاز مما جعلهم يحاولون أن يبذّوا أصحاب القصيد بأن ينظموا الرجز فى أغراض القصيد ، ولجوُّا فى ذلك أيما لجاج ، فاتخذوا القصائد الجاهلية والمخضرمة - كمنظومات لبيد والشماخ - نمُوذجاً يحتذونه . وساعدهم وأعانهم على هذا اللَّجاج ما نفق بين طوائف أهل الأدب لاسيما النحاة من حبّ للألفاظ الغريبة . فكان الرُّجَّاز يمدون هؤلاء العلماء والنحويين بضالتهم من الألفاظ النادرة والتراكيب والأساليب الغريبة ، وربما تزيدوا واخترعوا [3] .

---

(١) المصدر نفسه ص٢٣٩ .

(٢) بناء القصيدة العربية يوسف حسين بكار ص٢٩ ، ٣٠ دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة ١٣٧٩هـ - ١٩٧٩م .

(٣) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها عبد الله الطيب ج١ ص٢٣٣ .

فقد اتجه شعراء العصر الأموى بالرجز إلى منافسة القصيد وهم فى ذلك فريقان : فريق يجمع بين القصيد والرجز ، وفريق قصر نفسه على الرجز ، وهو القسم الذى أطلق على أصحابه اسم الرجاز .

ومن أشهر الذين عرفوا بقول القصيد والرجز الشاعر جرير [1] ففى ديوانه قطع من الرجز ليست بالقليلة ، غير أن الغالب عليه هو القصيد ، وهو فى القصيد أبرع منه فى الرجز [2] .

ومثل جرير فى الجمع بين القصيد والرجز ذو الرمة [3] ، وكان فى رجزه أسهل منه فى قصيده وذلك مثل قوله فى إحدى أراجيزه :

يـــا مَىُّ ذاتَ المَبْسَم الـــبَرُود بعد الرُّقاد والحشى المخضود [4]

والكشح من أدمـــــانةٍ غنود عن الظبـــاء متْبع فـــرود [5]

أهلكتنا باللوم والتـــفنيـــد [6]

---

(١) هو أبو حَزْره جرير بن عطية بن الخطفى من بنى كليب بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم انظر خزانة الأدب للبغدادى ج١ ص٧٥ وكذا تاريخ الأدب العربى كارل بروكلمان ترجمة عبد الحليم النجار ج١ ص٢١٥ وكذا امراء الشعراء السيد فرج ص١٨٤ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢م وكذا تاريخ الأدب العربى أحمد حسن الزيات ص١١٢.

(٢) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها عبد الله الطيب ج١ ص٢٣٦ وكذا تاريخ الأدب العربى العصر الإسلامى شوقى ضيف ص٣٩٥ الطبعة التاسعة دار المعارف .

(٣) هو غيلان بن عقبة بن بُهَيشي ويكنى أبا الحارث ، وهو من بنى صعب بن ملكان بن عدى بن عبد مناة وإنما سمى ذا الرّمّة بقوله فى الوتد :

وغير مرضوخ القفا موتود أشعث باقى رُمّة التّقليد

انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ص٤٣٧ وما بعدها وكذا تاريخ الأدب العربى كارل بروكلمان ج١ ص٢٢٠ وكذا خزانة الأدب للبغدادى ج١ ص١٠٦ .

(٤) المخضود المتثنى المنكسر .

(٥) وأراد بالكشح ما بين السرة ووسط الظهر والظبية المتبع التى معها ولدها .

(٦) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها عبد الله الطيب ج١ ص٢٣٥ .

فهذا أسلس وأسهل من قوله فى القصيد :

أخو قفرة مستوحش ليس غيره ضعيف النداء أصحل الصوت لاغب [1]

تلوَّم بَهْيَاهُ بَيَاهٍ وقد مضى من الليل جَوْزٌ واسبطرَّت كواكبه [2]

ولسنا نقصد بالفريق الأول من نظموا بعض أراجيز قليلة مثل جرير وذى الرمة على نحو ما بينا ، إنما نقصد من أكثروا منها . ونظموا بين الحين والحين بعض القصيد .

فمثلاً أبو النجم [3] بالرغم من غلبة الرجز عليه فقد كان يقول القصيد أحياناً . قال ابن سلاَّم " وكان أو النجم رُبَّما قصَّد فأجاد ، ولم يكن كغيره من الرُّجَّاز الَّذين لم يُحْسنُوا أن يُقَصِّدوا " [4] . ومن قصيدة همزية روى ابن سلام كلمة منها فى الغزل مقدمة لقصيدة أنشدها أمام سليمان بن عبد الملك ، يفخر فيها بقومه ربيعة ، جاء فى أولها :

عَلِقَ الهَوَى بِحَبَائِلِ الشَّعْثَاءِ والمَوْتُ بَعْضُ حَبَائِلِ الأَهْوَاءِ

لَيْتَ الحِسَانَ إذا أَصَبْنَ قُلُوبَنَا بالدَّاء ، جُدْنَ بِنِعْمَةٍ وشِفَاءِ

لِلشَّمِّ عِنْدِي بَهْجَةٌ ومَلاحَةٌ وأُحِبُّ بَعْضَ مَلاحَةِ الذَّلْفَاءِ [5]

---

(١) وأصحل الصوت ضعيفه واللاغب فى معناه .

(٢) وأراد بيهياه التثاؤب والاعياء والجوز الشطر من الليل ، واسبطرت أسرعت انظر ديوان ذى الرمة ص٤٩ طبعة المكتب الإسلامى للطباعة والنشر بيروت الطبعة الثانية ١٦٩٤م .

(٣) هو أبو الفَضْل بن قُدامة بن عُبيد الله بن عبد الله بن الحارث ابن عبدة بن الحارث بن الياس بن العوْف بن ربيعة بن مالك بن عجل بن الجيم بن صعب بن بكر بن وائل وهو أحد رجاز الإسلام المتقدمين فى الطبقة الأولى انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ص٥٠٢ وكذا طبقات الشعراء لابن سلام ص٧٤٥ ، ٧٥٠ وكذا خزانة الأدب للبغدادى ج١ ص١٠٣ وكذا الكامل فى اللغة والأدب للعلامة أبى العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد النحوى المتوفى سنة ٢٨٥هـ ج٢ ص٩٦ الناشر مؤسسة المعارف بيروت وكذا معجم الشعراء المؤتلف والمختلف للآمدى ص٣١٠ .

(٤) طبقات الشعراء لابن سلام ص٧٤٩ .

(٥) الشم : جمع شماء والذلفاء التى قصرت قصبة أنفها .

وأرَى البَيـاضَ عَلَى النِّسـاء جَهـارَةً والـعِتْقُ تَعْرِفُهُ عَلَى الأدَمـــاء [1]

والـقلبُ فـــيـــه لِكُلِّهنَّ مَوَدَّةٌ إلاَّ لِكُلِّ دَمِيـــمَةٍ زَلاَّءِ [2]

ويروى عن أبى النجم أنه كـانت فـيـه فكاهة ولذلك قـرب من نفـوس الولاة والأمراء والخلفاء ، وله فيهم أمداح كثيرة ، فنراه يمدح الحجاج بن يوسف وغيره من ولاة العراق كما يمدح سليمان بن عبد الملك وهشاماً وقد أقطعه هشام بن عبد الملك أرضاً بالكوفة تسمى الفرْك كان ينزل بها [3] . ومما يروى فى أخباره أنه قدم على زياد بن أبيه فرهبه رهبة شديدة فخرج من عنده ، وهو يقول :

أقَبلتُ من عنَد زيادٍ كـــالخَرِفْ تخطُّ رجـــلاى بخطٍّ مـــخـــتلفْ

تكتُّبـــان فى الطريق لامَ الِف [4]

وهذا يدل على أنه كان كاتباً . ويُجْمع الرواة على أنه كان سريع البديهة فى صنع الشعر ونظمه ومن ثَمَّ كان يغلب الشعراء والرجَّاز حين يستبقون فى موضوع يطرحه خليفة أو وال ، ويفوز هو بالجائزة من دونهم ، ويقول أبو عمرو بن العلاء :

" هـــو أبلـغ مـــن العَّجاج فى النعت " [5]

ويرى الدكتور عبد الله الطيب المجذوب أن مذهب أبى النجم من الرجز أسلم

---

(١) الجهارة : حسن المنظر والهيئة والقد ، يروعك إذا رأيته . والعتق : الجمال الدال على كرم الأصل ونبل المحتد ، قديم متوارث . وامرأة أدماء ورجل آدم : سمراء وأسمر إذ اشتدت سمرتها .

(٢) امرأة زلاء : خفيفة الوركين ، لا عجيزة لها ، وهى بينة الزلل وهى الرسحاء أيضاً ، وهو من قبيح ما تراه فيهن ، مكروه مستشع انظر طبقات الشعراء لابن سلام الجمحى ص٧٤٩ ، ٧٥٠ .

(٣) تاريخ الأدب العربى كارل بروكلمان ترجمة عبد الحليم النجار ج١ ص٢٢٦ .

(٤) الخصائص صنعة أبى الفتح عثمان بن جنى تحقيق محمد على البجاوى ج٣ ص٢٩٧ دار الكتاب العربى – بيروت – لبنان .

(٥) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادى ج١ ص١٠٣ .

من مذهب العجاج وابنه رؤبة ، لأنه لم يخرج بنظمه - مع إطالته - عن مجرد الترنم - وما تجده فى كلامه من الغريب فهو سيلقىٌ غير متكلف [1] ، وتعد أرجوزته اللاميَّة من أجود أراجيزه ، وقد وصفها رؤبة بن العجاج بأنها أمُّ الأراجيز[2] . وهى التى يقول فى مطلعها :

الحمدُ للّهِ الوَهُوبِ المُجْزِلِ أعْطَى فَلَمْ يَبْخَلْ ولَمْ يُبَخَّلِ [3]

كُومَ الذُّرى مِنْ خَوَلِ المُخَوَّلِ تَبَقَّلَتْ مِنْ أوَّلِ التَّبَقُّلِ [4]

بيْنَ رِمَاحَىْ مَالِكٍ ونَهْشَلِ يَدْفَعُ عَنهَا العِزُّ جَهْلَ الجُهَّلِ [5]

وهى أجود ، أرجوزةٍ للعرب ، فقد أنشدها أو النجم هشام بن عبد الملك ، وكان هشام يصفق بيديه من استحسانه لها ، حتى إذا بلغ فى قوله صفة الشمس :

حَتَّى إذا الشَّمْسُ جَلاها المَحْبِلي بَيْنَ سِمَاطَىْ شَفَقٍ مُرَعْبَلِ [6]

صَفْوَاءَ قَدْ كَادَتْ ولَمَّا تَفْعَلِ فَهِيَ على الأفْقِ كَعَيْنِ الأحْوَلِ [7]

---

(١) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها عبد الله الطيب ج١ ص٢٣٤ .

(٢) الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ج٩ ص٧٤ .

(٣) المجزل : الجزيل العطاء . أجزل له العطاء : أعظمه واستجاده من خيار المال . بخله : نسبة إلى البخل .

(٤) كوم جمع كوماء : وهى الناقة عظيمة السنام . والخول : ما أعطى الله سبحانه عباده : أنعام وعبيد وخدم ، أعطاهم إياه تفصيلا . والمخول بتشديد الواو وكسرها هو الله سبحانه ، خولهم الأموال . ولو أنشد المخول بتشديد الواو وفتحها ، يعنى الذى أعطاه أحسن الخول ، لكان جيداً . وتبقلت الماشية ارعت البقل حتى سمنت أو عظم سنامها .

(٥) يريد مالك بن ضُبَيْعة بن قيس بن ثعلبة ، ولهنشل بن دارم والمراد بقوله بين رماحى مالك ونهشل : يعنى أنهم حموا موضع المرعى ، لم يشركهم فيه أحد لعزهم فما استطاع صاحب جهل وشر أن يعتدى على ما حموا منه . انظر الطرائف الأدبية عبد العزيز الميمنى ص٥٥ - ٧١ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر وكذا الأمالى لأبى على اسماعيل بن القاسم القالى ج٢ ص٢٣٣ منشورات دار الآفاق بيروت وكذا الشعر والشعراء أبى محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة ج٢ ص٥٠٣ وكذا طبقات الشعراء لابن سلام الجمحى ص٧٤٨ .

(٦) مرعبل : مقطع .

(٧) صفواء : مائلة للغرب انظر الطرائف الأدبية عبد العزيز الميمنى ص٦٩ .

أمر هشام بوَجْءِ رقبته وإخراجه ، وكان هشام أحولَ[1] . والأراجوزة بعد ذلك تفيض بالغريب فى وصف الإبل ومراعيها ، وكان رؤبة كما قلنا يسميها أمَّ الرجز استحساناً لها وإعجاباً بها . ويروى أنه راجَزَ العجّاج فخرج العجاجُ على ناقةٍ (له كوماءَ) وعليه ثياب حِسانٌ وخرج أبو النجم على جمل مهنوءٍ ، وعليه عباءَة فأنشد العجاج :

قَدْ جَبَـــرَ الدِّين الإلهُ فَجَبَـــرْ وعَوَرَ الـــرَّحْمَـــن مَنْ وَلَّى الـــعَوَرْ[2]

وقد ضمن العجاج أرجوازته هجاء لربيعة فاستعدتْ عليه راجزها أبا النجم ، فبادره ينشد أرجوزته :

تذكَّرَ القلبُ وجَهلاً ما ذكَرْ

حتى إذا بلغ إلى قوله :

إنـى وكُلُّ شـــاعـــرٍ مِنَ البَشَرْ شـــيطانُهُ أُنثى وشـــيطاني ذكَرْ
فـــمـــا رآنى شـــاعِرٍ إلا اسْتَـــتَـــرْ فِعْلَ نُجُوم اللَّيْلِ عـــــايَنَّ القَمَرْ
عَشِّي تميمٌ واصْغُرِي فِيـــمن صَغَرْ وجـــاوِرِي الذُّلَ واعْطِي مَنْ عـــشـــر[3]
وأمُرِّي الأنْثـــى عَلَيْكِ والـــذُكَرْ فـــإنَّمـــا يَشْرَبُ مَنْ ذَلَّ السُّؤرْ

وارْضَىْ بـــإخْلابَةٍ وَطْبٍ قَدْ حَزَرْ[4]

فبينا هو ينشد ، إذ وثب جمله على ناقة العُجاج فضحك الناس وانصرفوا

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ج٢ ص٥٠٣ .
(٢) جبر الكسر يجبره شده حتى يستوى ويلتئم وجبر الثانية بمعنى انجبر . (ولى الشىء وتولاه) اتبعه . والعور : قبح الأمر وفساده وترك الحق فيه ، وليس من (عور العين) ديوانه ص٤ .
(٣) من عشر : جمع الأعشار .
(٤) الأغانى لأبى الفرج الاصبهانى ج٩ ص١٦٠ وكذا خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادى ج١ ص١٠٣ .

وهم ينشدون قوله : " شيطانةٌ أنثى وشيطاني ذكرْ " ومن أحسن ما يروى من أراجيزه أرجوزته فى وصف فهود عبد الملك بن بشر بن مروان فقد قال له عبد الملك انعتْ لى فهودى هذه ، فقال :

جـــــــاءَ مـطـيـعُ بُمـطـاوعاتِ عُلِّمْنَ أو قَدْ كُنَّ عـــــــالماتِ
فَهْيَ ضَوَارٍ مـــــن مُضَرِّيـــــاتِ تُريكَ آمـــــاقـــــاً مُخَطَّطاتِ
سُوداً عـــــلـــــى الأشْداقِ سَائلاتِ تَلْوي بـأذْنـابٍ مُوقَّفـــــــــاتِ
حَتـــــــــــى إذا كُنَّ المَجْراتِ حَيْثُ تَظُنُّ الـــــــوَحْش آخِذاتِ
ثُمَّ حَدُوْنَ الوَحْش مـــــقـــــبْلاتِ فـــــوائْبَتْهُن مـــــشَمِّراتِ
فَلَوْ تَرَى التُّيـــــوسُ مُضْجَعـــــاتِ عَلِمْتَ أنْ لَيْس بـســـــــــالماتِ
أقُوْلُ إذْ جِئـــــــــــنَ مُذَبَّحَاتِ عـلـى الإكـــــــــــافَيْن مُعَدَّلاتِ

مـــــــا أقْرَبَ المَوْتَ مـنَ الحَيَاةِ (١)

وكثير من رجزه على هذه الشاكلة لا يُبْعد فيه ولا يغرب ، وإن كان من الحق أنه " كان يتوسع فى الكلام ويحمل بعضه على بعض ويشتق بعضه من بعض "(٢) .

ولكنه يظل قريباً منافى فى جمهور رجزه وخاصة حين يعمد إلى الدعابة على شاكلة القصة التى رواها لنا أو الفرج فى كتابه الأغانى فقد حكى أن هشام ابن عبد الملك اغتمَّ ليلةً وأراد محدثاً يحدثه ، فقال لخادم له أبغنى محدثاً اعرابياً أهوج شاعراً يروى الشعر فخرج الحاجب إلى المسجد فإذا هو بأبى النجم ، فضربه برجله وقال له : قم أجب أمير المؤمنين فقال :

---

(١) الأكاف : شبه الرحل والقتب انظر الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ج٩ ص١٦٨ وكذا الشعر والشعراء لابن قتيبة ج٢ ص٥٠٥ .

(٢) الخصائص صنعة أبى الفتح عثمان بن جنى تحقيق محمد على النجار ج١ ص٢٣٠ .

أنا أعرابيٌّ غريب .

قال : إياك أبغى فهل تروى الشعر ؟ قال نعم وأقوله .

فأقبل به حتى أدخله القصر وأغلق الباب - فأيقن الشر - ثم مضى فأدخله على هشام فى بيت صغير ، بينه وبين أهله ستر رقيق ، والشمع بين يديه يتلألأ قال : فلما دخلت قال لى : أبو النجم ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، طريدك . قال : اجلس . فسألنى وقال : أين كنت تأوى ، فأخبرته الخبر قال : ومالك من الولد والمال ؟ قلت : أما المال فلا مال لى ، وأما الولد فلى ثلاث بنات وبُنَّى يقال له شيبان قال : هل أخرجت من بناتك ؟ قلت : نعم زوجت ثنتين وبقيت واحدة تجمز فى أبياتنا كأنها نعامة ! قال وما وصيت به الأولى ؟ - وكانت تسمى بَرَّة - قال :

أوصيت من بَرَّة قلباً حُرّاً ... بالكلب خيراً ، والحماة شرّاً

لا تسأمى ضرباً لها ، وجَرّاً ... حتّى ترى حلو الحياةَ مُرّاً

وان كستْك جوهراً ودُرّاً ... والحىُّ عُمْيٌ بهم وبُرٌّ طُرّاً

فضحك هشام وقال : فما قلت فى الأخرى ؟ قال : قلت :

سُبِّى الحماةَ وابْهَتي عليها ... وإن دَنَتْ فازْلفى إليها

وأوجعى بالفِهر ركبتيها ... ومِرفقيها ، واضربى جنيها

وقعِّدى كفّيك فى صُدغيها ... لا تَخبرى الدهر بذاك ابنيها

فضحك هشام حتى ظهرت نواجذه ، وسقط على قفاه وقال : ويحك ما هذه وصية يعقوب لولده! قال : ولا أنا كيعقوب يا أمير المؤمنين قال فما قلت فى الثالثة ؟ قال : قلت :

أوصـــيك يا بنتى فـــإنىّ ذاهبٌ أوصـــيك أن يحـــمَدك الأقـــاربُ
والجـارُ والضـيفُ الكريمُ السـاغبُ ويرجع المسكينُ وهو خـــائبُ
ولا تـنى أظـفـــــارُك السُّلاهبُ لهنَّ فى وجـــه الحـــماة كـــاتبُ

والزوج إنَّ الزوج بئس الصـاحبُ [1]

وكان أو النجم بمثل هذه الدعاية يخف على قلوب الولاة والخلفاء ، فيفسحون له فى مجالسهم ويعطون له المنح ويجزلون له العطاء [2] .

ومن الشعراء الذين عرفوا بقول القصيد والرجز ولكن غلب عليهم الرجز الشَّمَرْدَلُ بن شَريك التميمى [3] الذى كان معاصراً لجرير والفرزدق والذى يقول عنه صاحب الأغانى إنه " كان صاحب قنص وصيد بالجوارح وله فى الصقر والكلب أراجيز كثيرة " [4] .

فقد أخذت الأرجوزة حين طالت فى العصر الأموى تتناول كل أغراض القصيدة وتجرى على نمطها من الحديث عن الأطلال ووصف الرحلة فى الصحراء والوصف والهجاء والفخر ، فهى لا تختلف غالباً عنها فى النظام وسرد الموضوعات المتنوعة والمختلفة ومضت تَزْحَمُها حتى غلبتها فى باب الصَّيْد بالجوارح ، إذ نجد أكثر من شاعر ينظم فى هذا الباب أراجيز كثيرة وأول الشعراء الذين ذكرت لنا

(١) الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ج٩ ص١٦٣ وما بعدها .
(٢) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادى ج٢ ص٤٠٢ ، ٤٠٣ .
(٣) هو الشَّمَرْدَلُ بن شَريك بن عبد الله بن بكر بن ضبارى بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ويعرف بابن الخربطة شاعر محسن فى القصيد وفى الرجز انظر الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ج١٣ ص٣٥١ وما بعدها وكذا معجم الشعراء المؤتلف والمختلف للآمدى ص١٣٩ وكذا اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى محمد مصطفى هدارة ص٤٩٥ الطبعة الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م المكتب الإسلامى .
(٤) الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ج١٣ ص٣٦١ .

المصادر المختلفة اهتماهم بشعر الطرد هو الشَّمَرْدَلُ بن شَرِيك وروى له أبو الفرج في كتابه الأغاني أراجوزة استهلها بقوله :

قد أغتدى والصبحُ في حِجابهِ ... والليلُ لم يأوِ إلى مآبهِ

وقد بدا أبْلقَ من مُنْجابه ... بتوَّجيٍّ صادفي شبابه [1]

مُعاودٍ قد ذلَّ في إصعابهِ ... قد خرق الضِّفارَ من جذابه [2]

وعرفَ الصوتَ الذي يُدْعىَ به ... ولمعةَ المِلْمع في أثوابه [3]

ولم يذكر لنا أبو الفرج أمثلة وافية لطردياته يمكننا أن نعرف منها مدى ما بلغه فيها .

ويلقانا في آخر العصر الأموى شاعر جمع بين الرجز والقصيد أيضاً هو أبو نخيلة [4] وله شعر كثير في الطرد فابن المعتز يذكر أن له في القنص أعاجيب كثيرة وأراجيز مشهورة يقول : " له في الطرد أراجيز كثيرة مشهورة ... وأعاجيبه في القَنْص وغيره كثيرة " [5] .

ومما ذكره له ابن المعتز أراجوزة في طرد عشر نعائم يصفها فيقول :

---

(١) أبلق : فيه سواد وبياض . منجابه : مكان انكشافه . التوجى : الصقر ينسب إلى توج من قرى فارس .

(٢) خرق : شق . الضفار : الحبل يشد به .

(٣) الملمع : المشير بثوبه .

(٤) اسم يَعمرَ وإنما كُني (أبا نخيلة) لأن أمه ولدته إلى جنب نخلة ، وهو من بني رحّمان بن سعد كان من أفصح الناس وأشعرهم وكان مطبوعاً مقتدراً وكان الغالب عليه الرجز ومع ذلك لا يقصر في القصيد انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ج٢ ص٥٠١ وكذا الأغاني لأبى فرج الأصبهاني ج١٨ ص١٣٩ وكذا طبقات الشعراء لابن المعتز تحقيق عبد الستار أحمد فراج ص٦٣ الطبعة الرابعة دار المعارف .

(٥) طبقات الشعراء لابن المعتز تحقيق عبد الستار فراج ص٦٧ .

أنعت مهراً سبط القرات ورداً طِمِرّاً مُدمَج السُّراة [1]

يغدو بنهدٍ في اللِّجام عاتِ نعائماً عشراً مطّردات [2]

صكُّ العراقيب هجنّعاتِ فاتصاع وانصعْنَ مُؤَلّيات [3]

ما كان إلا هاكَهُ وهات حتى اجتمعن متناعضات [4]

بالسّهبْ والقُدْر من الحمياة واختل خضنا هيقة شوشات [5]

فانعفرت من آخر الهيقات بغير تكبير ولا صلاة [6]

كأنها خالفة السراة [7]

وواضح من هذه الأرجوزة أن الصيد في أواخر القرن الأول كان لا يزال قريبا من البداوة الجاهلية فهو يطارد بجواده عشر نعائم تماماً كما كان يفعل الجاهلي كما نلاحظ جنوح شعر الطرد في ذلك العصر إلى الغريب واستخدام الألفاظ الوحشية وكأن بالشاعر قد أحس أنه في شعر الطرد يرتد إلى العصر الجاهلي بيئة وموضوعاً [8] . ومن الشعراء الذين عرفوا بقول القصيد والرجز ولكن غلب عليهم الرجز أيضاً العمانيّ [9] واسم محمد بن ذؤيب وهو من بني نهشل بن دارم من بني قُقَيْم وذكر الأصمعي ان العماني مات وهو ابن ثلاثين ومائة سنة ، ولم

(١) القرات : بمعنى الظهر والتاء زائدة . طمِّراً : الفرس الجواد . السرة : الظهر .
(٢) بنهدٍ : الفرس الحسن الجميل والهند الشيء المرتفع .
(٣) صكُّ : من أوصاف النعام . هجنعات : الهجنع : الطويل . انصاع : أسرع .
(٤) تناعضت الإبل : تزاحمت .
(٥) السهب : الفرس الواسع الجرى . الحماة : عضلة الساق . خضنا : الخضن الجانب . الهيقة : النعامة ومعنى البيت : يريد أن النعائم اجتمعت متزاحمة بسبب الجواد السريع وبسبب الغدر من عضلات سيقانها بعد طول جريها .
(٦) معنى البيت : أن جانبي النعامة قد اختلا فاتعفرت بدون تكبير ولا صلاة .
(٧) السراة : جمع سار انظر طبقات الشعراء لابن المعتز تحقيق عبد الستار فراج ص٦٦ وكذا اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجرى محمد مصطفى هدارة ص٤٩٦ .
(٨) المصدر نفسه ص ٤٩٦ .
(٩) انظر في ترجمته طبقات الشعراء لابن المعتز تحقيق عبد الستار فراج ص١٠٩ وكذا تاريخ الأدب العربي كارل بروكلمان ترجمة عبد الحليم النجار ج١ ص ٢٢٩ وكذا الأغاني ج١٧ ص١٧

يكن عُمَانِيّاً ، وإنما غلب عليه العمانيّ وكان السبب فى ذلك أن دُكيناً الراجز المعروف نظر إليه وهو يسقى الإبل ويرتجز ، فرآه مُصْفَرّاً مريضاً مهزولاً فقال : مَنْ هذا العمانيّ ؟ بسبب صفرة وجهه ، فلزمه ذلك لأن عُمَان كانت وبيئة وأهلها مصفرة وجوههم .

كما ذكر الأصمعى أن العمانى كان شاعراً قديماً مغلقاً مطبوعاً مفيداً وكان جيد الرجز والقصيد غير أن الأغلب عليه الرجز [1] ، وكان يُوزن بالعجاج ورؤبة ، بل كان أطبع منهما . وكان من أقرانهما فى السن والزمان وأقران دُكيْن وأبى النجم العجلى ، إلا أنه عاش وبقى حتى أدرك الاسلام أيام الرشيد [2] .

وكان يمدح مروان ، ويزيد بن الوليد وابنه إبراهيم ، من بنى أمية ، ولكن العباسيين تلقوه أيضاً بقبول حسن ، من أبى العباس السفاح إلى هارون الرشيد [3] .

ومما يختار له كلمته فى المهدى :

الحمد للّه الذى بحمْدِهِ ... مَنَّ على عباده بعبدِهِ
مهدِّينا الهادى بُرشْدِهِ ... أصبح بين غَوْره ونَجْدِهِ
وكلُّ حرٍّ يَرْتجى من رِفْدِه ... فَضْل الذى فضلُه بمجده
يا بن الذى كان نسيج وَحْدِه ... أثبتْ لهارون مكان وِرْدِه
بِمَشْرَع يَشْفِى الصَّدَى بِبَرْدِه ... واشْفَعْ لنا موسى به مِنْ بَعْدِه
يا ابن أبيه وشَبِيهَ جَدِّه ... يعُرف منه جَدُّه بِجِدِّه [4]

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز تحقيق عبد الستار فراج ص١٠٩ .
(٢) المصدر نفسه ص١١٤ .
(٣) تاريخ الأدب العربى كارل بروكلمان ترجمة عبد الحليم النجار ج١ ص٢٢٩ .
(٤) طبقات الشعراء لابن المعتز تحقيق عبد الستار فراج ص١١٠ ، ١١١ .

أما الفريق الثانى الذى قصر نفسه على الرجز فقد برز من أصحابه كثيرون منهم دُكَيْن بْنُ رَجَاءِ الفقيمى [1] . ودُكَيْنُ بْنُ سَعيدٍ الدَّرامىُّ [2] ، وقد خلط بينهما ابن قتيبة كما لاحظ ياقوت الحموى فى معجمه . فنجد أن دكين بن سعيد هذا هو الذى كان منقطعاً إلى عمر بن عبد العزيز حين كان والياً بالمدينة يسامره مع أبى عون وسالم بن عبد الله فلما وُلى عمر بن بعبد العزيز الخلافة قصده ، فلما استأذن عليه قال له الحاجب : إنه فى شغل يرد المظالم فترقب خروج عمر للصلاة فلما خرج ناداه فقال :

يَا عُمَرَ الخَـــيـــرات والمكارم ... وعـــمـــر الدســـائع العْظَائِمِ [3]

إنـىُّ امـــــرُو مـن قـطـن بـن دارِمِ ... أسُدُّ حَقَّ الْمُسلمِ الْمُســـــالـم [4]

بَيْعَ يمـين بـالإخـــــــاء الـدائمِ ... إذ تـنـتـــــحى واللّه غَيْرُ نَائمِ [5]

وَنَحْنُ فـى ظُلْمـــــــــة لَيْل عَاتِمِ ... عِنْدَ أَبـــى عَوْنٍ وَعْنـــد سَالـــمِ [6]

ومن هؤلاء الرجاز أيضاً الزِّفَيان السعدى التميمى [7] ولا نجد فى المصادر

---

(١) هو دُكَيْنُ بْنُ رَجَاءٍ من بنى فقيم أحد رجاز العصر الأموى انظر معجم الأدباء لياقوت الحموى ج١١ ص١١٣ الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع وكذا تهذيب تاريخ دمشق الكبير للإمام الحافظ المؤرخ ثقة الدين أبو القاسم على بن حسن بن هبة الله الشافعى المعروف بابن عساكر هذبه ورتبه الشيخ عبد القادر بدران ج٥ ص٢٤٧ الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م دار المسيرة بيروت .

(٢) هو دُكَيْنُ بْنُ سَعيدٍ الدَّارمىُّ الراجز توفى سنة تسع ومائة انظر معجم الأدباء لياقوت الحموى ج١١ ص١١٧ ، ١١٩ وكذا الشعر والشعراء لابن قتيبة ج٢ ص٥٠٨ .

(٣) الدسائع : جمع الدسيعة : وهى العطية الجزيلة والحفنة الكبيرة .

(٤) والمسلم المسالم هنا من معنى السلم والسلف .

(٥) يريد أذكرك يميناً تبايعنا عليها بالاخاء الدائم .

(٦) انظر معجم الأدباء لياقوت الحموى ج١١ ص١١٧ وكذا الشعر والشعراء لابن قتيبة ج٢ ص٥٠٩ ، ٥١٠ .

(٧) اسمه عطاء بن أسيد السعدى التميمى انظر تاريخ الأدب العربى كارل بروكلمان ج١ ص٢٢٨ .

التى بأيدينا ما يجلو جوانب حياته . كما نجد أن لغته كانت تبعد عن الغريب ، فكانت أخف كثيراً من لغة العجاج [1] .

ومن هؤلاء الرجاز أيضاً وأبرزهم جميعاً العَجَّاج [2] وابنه رؤبة [3] اللذان "انتهت إليهما صناعة الرجز ، ونقول صناعة ، لأن الرجز تحول عندهما إلى صناعة لغوية ، فلم يعد يقصد به إلى التعبير عن غرائب اللغة " [4] .

ونحن نجد هذه الرغبة فى العناية بالغريب واستخدام الألفاظ الوحشية عند كثير من الشعراء فى العصر الأموى ، مثل الطرماح بن حكيم والكميت بن زيد وغيرهما من شعراء العصر الأموى كما اشتهر شبَيْل بن عَزْرَة الضبَغىّ [5] بأشعار له بناها على اللفظ الغريب . وهو اتجاه تعليمى أغلب الظن أن الذى دعا إلى ذلك عناية الأجانب بتعلم اللغة العربية ونهوض طائفة من العلماء بجمع اللغة وشواردها ، وقد انبرى العجاج وابنه رؤبة يجمعان لهم فى شعرهما هذه الشوارد حتى تحوَّل ديواناهما إلى معجمين للغرائب اللغوية ، وهذا ما ذهب إليه الدكتور عبد الله الطيب

---

(١) المصدر نفسه ص٢٢٨ .

(٢) هو عبد الله بن رؤبة بن سعد بن زيد مناة بن تميم وكان يكنى أبا الشعثاء والشعثاء ابنته وهو معروف بالعجاج وهو راجز مجيد من الشعراء وهو أول من رفع الرجز وشبهه بالقصيد انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ج٢ ص٤٩٣ وكذا تاريخ الأدب العربى كارل بروكلمان ترجمة عبد الحليم النجار ج١ ص٢٢٦ وكذا طبقات الشعراء لابن سلام الجمحى ص٧٣٨ وكذا المرشد إلى فهم أشعار العرب عبد الله الطيب ج١ ص٢٣٣ .

(٣) هو رؤبة بن العجاج التميمى الراجز الذى بلغ الرجز عنده صورته المثالية انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ج٢ ص٤٩٥ وكذا تاريخ الأدب العربى كارل بروكلمان ترجمة عبد الحليم النجار ج١ ص٢٢٦ وكذا طبقات الشعراء لابن سلام الجمحى ص٧٣٨ وكذا الجامع فى تاريخ الأدب العربى القديم حنا الفاخورى ص٥٠٢ دار الجيل بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٦م .

(٤) انظر تاريخ الأدب العربى العصر الإسلامى شوقى ضيف ص٣٩٦ .

(٥) البيان والتبين أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ تحقيق عبد السلام محمد هارون ج١ ص٣٤٣ الطبعة الرابعة الناشر مكتبة الخانجى بالقاهرة .

إلى أن العجاج وابنه رؤبة خرجا بالرجز عما أريد له من الخفة والترنم لأنهما التزما فيه الإطالة المملة مع تعمد للقوافى الصعبة واستكثار من الأوابد اللفظية [1] .

والحق أن رجزهما لكذلك ، ولهذا كانا مفضلين عند علماء اللغة ، روى أبو الفرج : "قيل ليونس من أشعر الناس ؟ قال العجاج ورؤبة فقيل له ولِمَ ولم نعن الرجّاز ؟ فقال هم أشعر من أهل القصيد ، إنما الشعر كلام فأجوده أشعره قد قال العجاج " قد جبر الدين الإله فجبر " وهو نحو من مائتى بيت موقوفة القوافى ولو أطلقت قوافيها كانت كلها منصوبة وكذلك عامة أراجيزهما " [2] . فهما بحق يُعَدَّان أهم من هيأ لتحول الرجز من شعبيته القديمة إلى بيئة المثقفين ، وسرعان ما ساتغله العباسيون فى شعرهم التعليمى الذى صنفوا فيه أهل المقالات وتحدثوا عن عجائب الخلق وقصوا وساقوا الحكم والأمثال [3] .

ويذكر أبو عبيدة أن العجاج هو أول من أطال الرجز وقصده وشبب فيه وذكر الديار واستوقف الصحاب عليها واستوصف ما فيها وبكى على الشباب ووصف الراحلة كما فعلت الشعراء بالقصيد فكان فى الرُّجاز كامرىء القيس فى الشعراء وأرجوزته " قَدْ جَبَر الدِّينَ الإلهُ فَجَبَرْ " نحو من مائتى بيت وهى تعد قصيدة [4] .

وعلى ذلك فالعجاج انتقل بالرجز خطوة جديدة فسار فيه على نهج الشعراء فى القصيدة .

وقد سخر العجاج أراجيزه منذ يزيد بن معاوية فى مديح الخلفاء وخاصة

---

(١) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها عبد الله الطيب ج١ ص٢٣٣ .
(٢) الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ج٢١ ص٦٠ .
(٣) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى شوقى ضيف ص١٣٩ وما بعدها دار المعارف .
(٤) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى السفر الثانى ص٧٥٤ وكذا العمدة لابن رشيق تحقيق مفيد قميحة ج١ ص٦٩ .

سليمان بن عبد الملك ونراه يرتجز بلسان قومه في خصومتهم للأزد بعد أن توفى يزيد بن معاوية ، ولما ولى مصعب العراق لأخيه عبد الله بن الزبير لازمه ومدحه وهجا المختار الثقفى ، فلما قتله عبد الملك بن مروان سارع العجاج إلى صفوف المروانيين فمدح بشر بن مروان والى العراق وأخاه عبد العزيز والى مصر ، كما مدح عمر بن عبيد الله بن معمر مشيداً بانتصاره على أبى فُدَيْك زعيم النجدات من الخوارج ، ومدح أيضاً الحجاج بن يوسف وهجا خصومه من مثل ابن الأشعث . وكانت فيه عصبية لقومه جعلته يضطرب فيما يضطربون فيه من خصومات قبلية ، وسبق أن بينا موقفه وهو يهجو ربيعة ، وكيف اقتص منه أبو النجم . واشتهر بأنه لا يحسن الهجاء ، ويروى ابن قتيبة ان سليمان بن عبد الملك قال للعجاج : " إنك لا تجيد الهجاء ! فقال : إن لنا أحلاماً تمنعنا من أن نظلم ، وأحساباً تمنعنا من أن نظلم ، وهل رأيت بانياً لا يحسن أن يهدم " (١) .

ومن الملاحظ أن أراجيز العجاج مليئة بأوابد اللغة وشواردها التى ينثرها ، بل أنه يضم بعضها إلى بعض وخاصة فى وصف الطبيعة الصحراوية بمناهلها ورمالها وكثبانها ونباتاتها وحيوانها الأليف والوحشى ، وكل ما يمر على أرضها من رياح وطير وكل ما يحلق فى سمائها من كواكب ونجوم (٢) .

كما أن العجاج لم يقف بأراجيزه عند ألفاظ اللغة العربية فقط بل يتعداها ويعمد إلى الألفاظ الفارسية فيعرِّبها ، وقد يصرف منها أفعالا ، على نحو ما نجد فى أرجوزته الجيمية فنجد فيها هذا الشطر :

كما رأيت فى المَلاَء البَرْدَجَا

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ج٢ ص٤٩٣ .

(٢) تاريخ الأدب العربى العصر الإسلامى شوقى ضيف ص٣٩٩ ، ٤٠٠ وكذا الأدب فى صدر الإسلام وعصر بنى أمية أ . د أحمد عبد الغفار عبيد ص١١١ .

يريد الرقيق ، وهو بالفارسية بَرْده وقال :

كالحَبَشِيِّ التفَّ أو تسَبَّجا

يريد لبس قميصاً ، وهو بالفارسية شبِى ، فعربه بسبيجة ، ثم صرف منه فِعلا فى بعض أبياته [1] مما يستحسن من رجز العجاج وصفه يعيرا بالنشاط والضمور من كثرة الأسفار يقول :

ناجٍ طَواهُ الأيْنُ مما وَجَفا [2]

طَىَّ الليالي زُلَفاً فَزُلَّفا

سَماوةَ الهلالَ حتى احقَوْقَفا [3]

كما نراه فى أراجيزه يكثر من بكاء الشباب وتصوير شيخوخته وضعفه فنراه يقول :

إمَّا تـــريـــنـــى أصِلُ الـــقُعَّادا وأتقى - أن أنهض الإرْعـــادا [4]

مـن أن تـبـــــــــدلتُ بـآدِى آدا لـم يـك يَنْآد فَمـــــــسى انـآدا [5]

وقَصـــبـــا حُنِّى حـــتى كـــادا يعـــود بعـــد أعْظُم أعـــوادا [6]

---

(١) الوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى على بن عبد العزيز الجرجانى تحقيق وشرح محمد أو الفضل إبراهيم - على محمد البجاوى ص٤٦١ ، ٤٦٢ طبع مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه .

(٢) ناجٍ : سريع . الأيْنُ : الاعياء . الوجيف : ضرب من السير .

(٣) سماوة الهلال إنما هو أعلاه والمعنى : طواه الأيْنُ كما طوت الليالى سماوة الهلال انظر الكامل فى اللغة والأدب للعلامة أبى العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد ج١ ص٨٨ .

(٤) القعاد : جمع قاعد . يريد أنه منهم ويفعل فعلهم .

(٥) الآد : القوة كالأبد . أناد : اعوج وانحنى .

(٦) القصب : كل عظم ذى مخ . حُنِّىَ : دق ، يريد أن عظمه وهن وضعف انظر تاريخ الأدب العربى العصر الإسلامى شوقى ضيف ص٤٠١ .

فقد شاع الجناس فى أراجيزه لكثرة ما كان يُعْنى به من الإتيان بالمصادر وأفعالها ومشتقاتها ، على نحو ما صنع هنا فى البيت الثانى بين الآد وانآد وفى البيت الثالث بين يعود وأعواد .

وكثيراً ما نراه يشتق من الأسماء الجامدة أفعالاً ومشتقات ، أو يأتى ببعض المزيدات من الحروف ، اعتماداً على حسه اللغوى وفطرته الفصيحة وكل ذلك بقصد الإغراب وتمادياً فى الابعاد ؛ ليكون نتاجه مصدراً للطرافة وموضعاً لاهتمام اللغويين الباحثين عن الغريب وكأن الإغراب أصبح عنده يقصد لذاته فإن فاته فى اللفظ نفسه أتى به فيما يضعه من صيغ جديدة .

ولعل من الطريف أن تعرف انه عدل عن افتتاح بعض أراجيزه بذكر الأطلال والبكاء على الديار ووصف الصحراء إلى الحمد والثناء على الله وقد يسترسل فى ذلك استرسالاً ، فتصبح الأراجوزة موعظة دينية تامة من مثل قوله :

الحمد لله الذى استقلّتِ بإذنه السماءُ واطمأنّتِ (١)

ويستمر فيتحدث فيها عن خلق السموات والأرض ، والبعث والنشور ، وما أنعم الله عليه به من نعم ، وقلقه على مصيره ورجائه فى ثوابه ، ويتحول إلى ما يشبه الواعظ وهو فى ذلك متأثر بمواعظ الوعاظ من حوله أمثاله الحسن البصرى وغيره .

كما نجده يلتزم فى أراجيزه الموقوفة أو المختومة بالسكون أن يكون موضع الروى فى الإعراب واحداً ، بحيث لو أطلقت قوافيها تحركت جميعاً بحركة واحدة

(١) انظر الأرجوزة فى ديوانه ص٥ وكذا تاريخ الأدب العربى العصر الإسلامى شوقى ضيف ص٤٠٠ وكذا التطور والتجديد فى الشعر الأموى شوقى ضيف ص٧٠ الطبعة السابعة دار المعارف .

على نحو ما نجد ذلك فى أرجوزته " قد جبر الدين الإله فجبر " ولو أطلقت قوافيها كانت كلها منصوبة [1] .

ومن شعراء الفريق الثانى الذى قصر شعره على الرجز رؤبة بن العجاج سماه أبوه العجاج باسم جَدِّه وقد ولد رؤبة حوالى سنة ٦٥ للهجرة ونشأ مع أبيه بالبادية ، ثم انتقل إلى البصرة وهناك أرسله الحجاج إلى دمشق ، ومن دمشق صحب الجيوش الغازية وبلغ الهند وقد أقام فى العراق مدة من الزمن وقد عنى به والده منذ صغره حتى استيقظت شاعريته مبكرة ومما يؤكد ذلك اننا نراه بفد معه على الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦هـ) ونراه فى رفقة الشعراء الذين حجوا مع سليمان بن عبد الملك سنة سبع وتسعين [2] .

ومن الملاحظ أنه كان يولع بالرحلة منذ شبابه إلى الشرق ، فينزل تارة السند وتارة خراسان . ومنذ أوائل القرن الثانى لزم ولاة العراق بمدحهم ، فقد مدح مسلمة بن عبد الملك وخالداً القسرىّ والى هشام بن عبد الملك على العراق ، والوليد بن يزيد بن عبد الملك ومروان بن محمد آخر خلفاء بنى أميّة ومدح كذلك بعض بنى العباس كالمنصور وغيره .

ويتضح من أراجيزه أنه كان يتعصَّب تعصُّباً شديداً وعنيفاً لقومه تميم ، ولعل ذلك ما جعله يهجو المهلب الأزدى [3] ، فقد كانت المنازعات تشتد وتحتدم بين تميم والأزد فى البصرة وخراسان ، وكثيراً ما أدت هذه المنازعات إلى حروب وسفك

---

(١) الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ج١٨ ص٦٠ وكذا الخصائص صنعة أبى الفتح عثمان بن جنى تحقيق محمد على النجار ج٢ ص٢٦٠ .
(٢) تاريخ الطبرى ج٥ ص٣٠٥ .
(٣) الديوان ص٧٤ .

دماء ، وكان يشترك فى بعض هذه الحروب يقول أبو عبيدة : " صاح رؤبة فى بعض الحروب التى كانت بين تميم والأزد : يا معشر بنى تميم أطلقوا من لسانى قال : وأبصر رجلاً منهم قد طعن فارساً طعنة ، فصاح : " لاعيًا ولا شَلَلاً " (١) .

ويعد رؤبة أشعر من أبيه وأغزر رجزاً (٢) ، ومن الملاحظ أنه عاش جل حياته فى عهد بنى أمية ، وأدرك بنى العباس ، وله مدائح فى أبى مسلم الخرسانى وأبى جعفر المنصور ومن مدائحه فى أبي مسلم قوله :

ما زال يأتى الأمر من أقطاره ... على اليمين وعلى يساره

مشمراً لا يصطلى بناره ... حتى أقر الملك فى قراره

وفر مروان على حماره (٣)

ورؤبة كما ذكرنا كأبيه العجاج تخصص فى الرجز ، ولم يقل فى القصيد سوى أربعة أبيات ذكر البغدادى فى الخزانة أنه لم ير له فى ديوانه سوى قطعتين من القصيد ، كل واحدة منهما تتكون من بيتين وهما يدخلان فى باب الأدب والحكمة يقول فى الأولى :

أيُّها الشامت المعيِّرُ بالشيـ ... ـب أَقِلَّنْ بالشباب افتخاراً

قد لبستُ الشباب غضاً طرياً ... فوجدت الشباب ثوباً معارا (٤)

---

(١) البيان والتبين أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ تحقيق عبد السلام محمد بن هارون ج١ ص٢١٤ ، ٢١٥ .

(٢) تاريخ الأدب العربى كارل بروكلمان ترجمة عبد الحليم النجار ج١ ص٢٢٧ وكذا خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادى ج١ ص٨٩ .

(٣) الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ج٢١ ص٥٩ وعنى بمروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية .

(٤) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادى ج١ ص٩١ .

ويقول فى الثانية

إذا مـــا الموت أقـــبل قَبْلَ قـــومٍ أكبَّ الحظُّ وانتـــقص العـــديد

أرانـا لا يفـــــــيق المـوت عنـا كـــــأنّ الموت إيّانا يكيـــــد [1]

وقد بدأ رؤبة فنَّه وأراجيزه منذ عصر الوليد بن عبد الملك ومعنى ذلك أنه عاش نحو أربعين سنة فى العصر الأموى ينظم أراجيزه ويُطَوِّرُها إلى أن بلغ بها الغاية ، بل أوفى على الغاية التى كان يريدها له أصحابه ، ولذلك اهتمت به كتب الأدب واللغة اهتماماً واسعاً .

فعنده انتهى فن الرجز إلى كل ما كان ينتظره من وعوثة وصعوبة لغوية ، إذ تحوَّل به يرضى اللغويين من حوله ويقدِّم لهم كل ما كانوا يحتاجونه من الشواذ اللغوية فى الألفاظ وأبنيتها وهيئاتها وما قد يحدث من إعلال فى بعض الحروف كالهمزة ومن ثمَّ أصبحت الأراجوزة عنده وكأنها متن لغوى معقد ، أو مستغلق ، تستغلق ألفاظه إذ ينتقيها من وحشى الكلام ، فمعظم ألفاظها تحتاج إلى الرجوع إلى المعاجم والتنقيب والتمحيص فى أمهات كتب اللغة والاستئناس بأقوال العلماء والمتخصصين فى حذق الغريب الذين كانوا يأخذون عنه أمثال أبو عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب وخلف الأحمر وأبى عبيدة وأبى زيد الأعرابى والأصمعى وغيرهم [2] .

كما ذكر لنا الطبرى [3] أن رؤبة كان جبرياً ، يؤمن بأن عمل الإنسان قدر

---

(١) المصدر نفسه ج١ ص٩١ .

(٢) تاريخ الأدب العربى العصر الإسلامى شوقى ضيف ص٤٠٢ ، ٤٠٣ وكذا الأدب فى صدر الإسلام وعصر بنى أمية أ . د أحمد عبد الغفار عبيد ص١١١ .

(٣) تاريخ الطبرى ج٥ ص٣٤٠

مقدور عليه لا مفر منه وكان هذا المذهب يرضى الأمويين ، لأنه كان يصرف الناس عن التفكير فى ولايتهم وتدبيرهم لشئونهم ، مؤمنين بأن خلافتهم قَدَرٌ مقدور يجب علبهم التسليم به ، ومن ثم نرى شعراءهم يردِّدون هذه الفكرة طويلاً ، وطبيعى أن يذهب رُؤْبَةُ هذا المذهب ، لأنه كان شاعراً أموياً ، وكان ممن أذاع للأمويين هذا المذهب هما جرير والفرزدق ، ولعل السبب فى ذلك أنهما كانا من مدَّاحهما ، وكذلك كان رؤبة ، ومن هنا شاعت عقيدة الجبر فى أراجيزه (١) .

وعلى نحو ما شاعت عقيدة الجبر فى أراجيزه التى مدح بها خلفاء بنى أمية كذلك شاعت الروح الإسلامية وظهرت بقوة فى أراجيزه ، وقد كان يتصل بها مباشرة إذ كان مُحَدِّثاً يروى الأحاديث بأسانيده (٢) فكان من الطبيعى أن يتسرب الإسلام إلى أراجيزه وأن يمدح بالخصال الإسلامية التى دعا إليها الدين الحنيف . وأغلب الظن أن هذا كله يدل على أن الشعر فى عصر بنى أمية تطور بتطور الحياة الدينية ، فقد كانت هذه الحياة فى مستقر نفوس الشعراء والرُّجاز على حداً سواء فقد كمن هذا الشعور الدينى فى أوعيتهم وأوهامهم وأحلامهم فانطلق كثيرون منهم يذيعون ذلك فى شعرهم وأراجيزهم حتى لتتحول قطع من نظمهم إلى عظات ، وابتهالات دينية (٣) .

وكان رؤبة مقدَّماً عند أهل اللغة من العلماء ، كان يونس يتعصب له تعصباً شديداً ، وقد ذكرنا رأيه فيه وفى أبيه العجاج على نحو ما بينا ، وكذلك كان رأى

---

(١) التطور والتجديد فى الشعر الأموى شوقى ضيف ص٣١٦ .
(٢) الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ج٢١ ص٥٨ .
(٣) التطور والتجديد فى الشعر الأموى شوقى ضيف ص٣١٦ .

الخليل بن أحمد فيه ، فقد أثر عنه إنه قال : " دفنا الشعر واللغة والفصاحة اليوم ، فقيل له وكيف ذاك ؟ قال : حين انصرفت من جنازة رؤبة " [1] .

وتتميز أراجيز هؤلاء الرجاز بصفة عامة بخاصتين بارزتين الخاصة الأولى شيوع المعانى الدينية فى هذه الأراجيز بل نجد أن بدايات بعضها تدل على أن هؤلاء الرجاز قد عدلوا عما أنسه وألفه الشعراء فى مطالع قصائدهم من ذكر للأطلال ووصف الرحلة ، إلى الحمد والثناء على الله سبحانه وتعالى ، هذا فضلا عن استرسال بعضهم فى صوغ المعانى الدينيّة إلى الحد الذى قد يجعل الأرجوزة موعظة دينية وذلك على نحو ما بينا فى أرجوزة العجاج التى بدأها بقوله :

الحمد لله الذى استقلت ... بإذنه السماء واطمأنت

بإذنه الأرض وما تغيت ... أرسى عليها الجبال الثبت

الباعث الناس ليوم الموقت [2]

وهى الأرجوزة التى سمعها أبو هريرة فقال له : " أشهد أنك تؤمن بيوم الحساب " [3] وذلك لأنه تحدث فيها عن البعث والنشور ، وما أفاء الله عليه من

---

(١) الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ج٢١ ص٦١ وكذا خزانة الأدب ولب لسان العرب للبغدادى ج١ ص٩١ وكذا وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبى العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان حققه احسان عباس ج٢ ص٣٠٢ دار الثقافة بيروت – لبنان .

(٢) انظر الأرجوزة فى ديوانه ص٥ .

(٣) الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ج٢١ ص٥٨ .

نعمه وقلقه على المصير الذى ينتهى إليه وأمله الوطيد فى نيل رضوان الله ورجائه ثوابه .

كما تعد بدايات الأراجيز سمة بارزة تدل على تأثر هؤلاء الرجاز بالروح الإسلامية ، وبخاصة فى اقليم العراق حيث كانت مواعظ الحسن البصرى وغيره تملأ الأسماع فى ذلك العصر .

وكما كان بعض الرجاز يبدأ أرجوزته بمعان دينية فإن بعضهم كان يختمها بمعان دينية أيضاً ، وذلك مثلما نجد عند ذي الرمة ، فنراه يختم أحدى أراجيزه بقوله :

فـــقلت لا والمبـــدىء والمعـــيـــد ... اللّه أهل الحـــمـــدُ والتـــمـــجـــيـــد

مـــــا دون وقت الأجل المعـــــدود ... مـــوعـــود رب صـــادق الوعـــود

هل أغـدون فى عـيـشـة رغـيـد ... واللّه أدنـــى لـــى مـــن الـــوريـــد

والموت يلقى أنفس الشـــهـــود [1]

والخاصة الثانية فى أراجيز هؤلاء الرجاز ، وعلى الأخص فى أراجيز العجاج وابنه رؤبة هى الإغراب فى اللغة ، فأراجيزهما تشتمل على الكثير من الغريب ، ولعل ذلك هو الذى جعل الاستاذ الدكتور شوقى ضيف يذهب إلى أن أراجيز رؤبة تعد متوناً فى اللغة ، " لا يقرأ الإنسان فيها حتى يشعر شعوراً واضحاً بأنه اتخذ لنفسه وظيفة غريبة ، هى صياغة الألفاظ والأساليب ، والإتيان بكل غريب شاذ فيها حتى يرضى ذوق اللغويين وحاجتهم " [2] .

(١) ديوان ذى الرمة ص٢٢٥ الطبعة الثانية ١٩٦٤م المكتب الإسلامى للطباعة والنشر بيروت .
(٢) التطور والتجديد فى الشعر الأموى شوقى ضيف ص٣١٨ .

وتراه فى موضع آخر يتحدث عن هذه الأراجيز بقوله : " نحن إذن بإزاء متون تؤلف لا بإزاء أشعار تصاغ ويعبر بها أصحابها عن حاجاتهم الوجدانية أو العقلية ، فقد تطور الشعر العربى ، وأصبحت الأرجوزة منه خاصة تؤلف من أجل حاجة المدرسة اللغوية وما تريده من الشواهد والأمثال " (١) .

وأغلب الظن أن هذا الحكم قد ينطبق على بعض أراجيز رؤبة ، بل على أجزاء منها ، وهى الأجزاء التى تتصل بوصف الصحراء والحيوان ، أما فى غير ذلك فإن لغة أراجيزه تبدو سلسلة على شاكلة قوله مثلا فى أبى مسلم :

مـــا ز ال بينى خندقـــاً ويهـــدمـــه ويســـتـــجـيش عـسكراً ويهـزمـــه
ومـــغنمـــاً يجـمـــعـــه ويقـــسـمـــه مـــروان لمَّا أن تهـــاوت أنجـــمـــه

وخـــانه فى حكمـــه منجـــمـــه (٢)

أما الحكم على أراجيز رؤبة وغيره من الرجاز بأنها لا تعبر عن حاجات أصحابها الوجدانية والعقلية فنجد أن ذلك يخرجها من دائرة الشعر إلى النظم أو بعبارة أدق إلى دائرة متون النحو والصرف والفقه ، وهذا ما لم يقل به أحد من العلماء حتى علماء اللغة الأوائل الذين اهتم بعضهم بهذه الأراجيز وأفادوا منها إفادتهم من الشعر القديم ، وإنما مرد أن العجاج ورؤبة كانا - كما ذكر الدكتور عبد الله الطيب - يتكلفان الإكثار من الغريب والقوافى الصعبة ولأنهما التزما فيه الإطالة المملة " (٣) . وهذا لا يعنى أن تخرج أراجيزهما من دائرة الشعر إلى دائرة

---

(١) المصدر نفسه ص٣١٩ .
(٢) الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ج٢١ ص٥٨ .
(٣) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها عبد الله الطيب ج١ ص٢٣٣ .

المتون بل يجعلهما أشبه بالكميت بن زيد الذى كان يتكلف هو الآخر الغريب فى هاشمياته حين يصف الناقة وأشبه بالطرماح بن حكيم الذى كان يصنع صنيع الكميت فى الوصف ولكن الفارق بينهما وبين الكميت والطرماح أنهما كان من أصل البادية فزادا غرابة لغتها غرابة وكان الكميت والطرماح من أهل الحضر . ومن الملاحظ أن وصف الصحراء والحيوان يتسم دائماً بالغرابة ، وهذا شيء واضح عند الشعراء ، لا يجده الدارس فى شعر الشعراء الجاهليين فحسب بل يجده فى شعر الشعراء الأمويين أيضاً فإذا نظرنا مثلاً إلى قول الأخطل وقد شبه ناقته بحمار وحشى ثم مضى يصور لنا حياة هذا الحيوان فيقول :

ومحتقرٍ حوز الفلاة إذا انتحى ... وشدٌ بمقتور من الميس كاهله

كأنى أغول الأرض عنى بقارح ... أخي قفرة قد طال من تسائله

طوى بطنه طوال السياق وألحقت ... مقاه بصلبٍ قد تفلّق قائله

رعى القورُماء الروض حتى تحسَّرت ... عَقيبقته وانضمَّ منه تماثله

فلما تولى فى جحافله السُّقا ... رواجعه مركوزة وذوابله

تذكَّر قرعاء القنود فلم يجد ... بها منهلاً إذا أعوزته أكاحله

وظل كمثل النصب يقذف طرفه ... إلى كلِّ شخص نابيءٍ هو عادله

وذكَّرها إن ادبر الصيف بالثرى ... وحرَّت عليه الشمس غذباً متاهله

فراح وراحت يتقيها بنحره ... ويحملها فوق الأحزَّة وابله [1]

فلا ريب أن من يقرأ هذه الأبيات يجد عناء فى الوصول إلى معانى ما فى

---

(١) ديوان الأخطل تحقيق الأب أنطون صالحانى اليسوعى ص٦٠ الطبعة الكاثوليكية بيروت ١٨٩١م .

هذا الشعر من ألفاظ غريبة وادراك ما فيها من دلالات والذى نراه هنا عند الأخطل قد نجده عند جرير والفرزدق وذي الرمة وغيرهم من شعراء العصر الأموى الذين كانوا يحتذون لغة الشعراء الجاهليين فى وصفهم الصحراء والحيوان فمثلوا بذلك - كما يقول الدكتور عبد القادر القط - " ردَّة لغوية بعيدة عن روح العصر الذى يعيشون فيه " (١) .

أما هؤلاء الرجَّاز وبخاصة رؤبة فقد عاشوا فى محيط أهل اللغة فوجدوا لديهم احتفاء وتقديراً ومن هنا نجدهم قد أضافوا إلى الإغراب الخاص بوصف الصحراء والحيوان إغراباً جديداً أسرفوا فيه إسرافاً ملحوظاً وذلك بما كانوا يولدونه من اشتقاقات لغوية ويستخدمونه من ألفاظ غريبة عفا عليها الزمان وتجاوزها العصر الذى يعيشون فيه وكان الهدف وراء ذلك وكل غايتهم أن ينالوا اعجاب علماء اللغة ورواة الغريب الذين كانوا يسرفون فى تقديرهم اسرافهم فى حشد أراجيزهم بالغريب (٢) .

وهذا كله لا يدفعنا إلى القول بأن أراجيزهم متون فى اللغة ، لا تعبر عن حاجات أصحابها الوجدانية أو العقليَّة فمما لاشك فيه أن وصفهم للصحراء وكذلك وصفهم للحيوان ينطلق من اعجابهم الشديد بهذه الصحراء وحياتها ، مما يدل على ارتباط وجدانى وثيق ، يظهر لنا بوضوح من وراء هذا الإغراب اللغوى ولنأخذ مثلاً لذلك أرجوزة رؤبة بن العجاج القافيَّة المقيَّدة التى دارت بين الباحثين الذين تناولوا الأراجيز بالدراسة ، وهى الأرجوزة التى أجهد البغدادى نفسه فى شرح الأشطار

---

(١) فى الشعر الإسلامى والأموى عبد القادر القط ص٣٢٣ طبعة دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت

(٢) التطور والتجديد فى الشعر الأموى شوقى ضيف ص٣١٧

الأول منها [1] ، وفيها يصف رؤبة مفازة من مفاوز الصحراء التى ظل الشعراء منذ العصر الجاهلى يفتخرون بركوب أهوالها ومخاطرها ، ولكن رؤبة يصف لنا هذه المفازة فيروعنا بالصور التى يرسمها ليؤكد هول هذه المفازة ومخافتها ، فهذه المفازة جزء من الصحراء ، تبدو عليه القتمة من هوله ، خاوٍ لم يجد هدايته بها ، يلمع فيه السراب لمعاناً ، يصل إلى حد درجة الخفقان والاضطراب ، وهو مع ذلك متسع يجعل الريح التى تهب عليه كليلة متعبة ، وهو صعب على النازل فيه آخر الليل لوعورة أرضه وجدبه ، بعيد من أن يصحبه الراكب فيصطبح فيه أو يأتيه ليلاً فيغتبق فيه ، غرقت أعلامه المتشابهة فى بحر من السراب وذرات التراب الذى كسحته الريح من على الأرض . يقول :

وقَاتمِ الأعْمَاقِ خَاوِى المُخْتَرَقْ ... مُشْتَبِهِ الأعْلاَمِ لَمَّاعِ الخَفَقْ [2]

يَكِلُ وُفْدُ الـرِّيـح مِنْ حَيْثُ اخْتَرَقْ ... شَأْزٍ بمـن عَوَّهَ جَدْبِ المُنْطَلَـقْ [3]

نـاءٍ مـن التَّصْبِيـح نَائـى المُغْتَبَقْ ... تبـدو لنا أعـلامُهُ بعـد الفَرقَ [4]

فـى قِطـعَ الآل وهَبْوَات الـدُّفَقْ ... خـارجـةً أعناقُهـا من مُعْتَنَقْ [5]

---

(١) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادى ج١ ص٧٨ وما بعدها ، وديوانه ص١٠٤ وما بعدها .

(٢) قاتم صفة للجزء من الصحراء وهو مجرور برب وهو من القتمة التى هى الغبرة تميل إلى الحمرة ، والأعماق جمع عمق : وهو ما بعد من أطراف المفاوز ، والخاوى : الخالى . المخترق : مكان اختراقه واجتيازه ، ليس به أنيس ولا شجر ، يريد خاوى مخترق الرياح ، والأعلام جمع علم ، وهى الجبال التى يهتدى بها المسافر ، ولماع الخفق يريد أن السراب يلمع فيه .

(٣) يكل يفتر ، وفد الريح : أولها ، ومن حيث اتخرق يريد من حيث هب الريح واتسع ، وذلك لأن الموضع إذا اتسع فترت الريح وإذا ضاق اشتد مرورها فيه ، والشأز : الصعب الغليظ ، وعوّة : نزل آخر الليل والجدب : نقيض الخصب والمنطلق : محل الانطلاق .

(٤) ناء : بعيد ، من التصبيح : يريد لا ماء فيه يورد بكرة والمغتبق من الغبوق وهو الشرب فى المساء ومعنى البيت : أن هذا المكان من الصحراء بعيد أن يصل إليه راكب ليصطبح فيه أو يغتبق .

(٥) الآل : السراب ، وهبوات الدُّفق ذرات التراب التى تثيرها الرياح وأراد بأعناق الجبال رؤسها والمعتنق فخرج أعناق الجبال من السراب .

فنراه يأتى بصور متتابعة من خلال هذه الأشطار الثمانية ليرسم هول هذه المفازة وما فيها من مخاوف وهلاك ، بقصد أن يروع سامعه بما يركبه من أهوال ومخاطر ، ونجده حين يصل إلى ما صنعته ناقته فى قطع مثل هذه المفاوز يطلُّ الإعجاب من كل صفة ينطق بها ، ومن كل صورة يرسمها لقوتها ونشاطها ، فهذا المكان من الصحراء المخيف المفزع تقطّعه ناقته فى حركة ونشاط ، ناقة تمد يدها ثم تسرع فى ردها ، تباعد فى خطوها وتغالى فيه ، تواظب على سيرها دون تعب أو ملل ، ثم نجده بعد ذلك يرسم لنا صورة لهيكل ناقته فيصفها بأنها مكتملة الخلق ، مكتنزة اللحم ، طويلة الظهر ، ضخمة فتيَّة ، يمور عضداها طوراً ، تسرع فى سيرها وتتقدم لا يهمها ما تكابده من جهد ، ولا ما يتصبب عليها من عرق تراكم على جوانبها حتى جعلها مسودَّة ، كأنما قد وسمت به ، وإذا استاف الدليل الطرق القديمة واحتار فى أمرها بدت هى نشطة قوية كأنها أتان وحشية جلدة سريعة أو حمار وحشى مقارع للفحول معضض العنق مخدَّشة ، حمار قوى مشتد البدن عفى الجسم كأن بدنه قد فتل فتلاً يشبه فتل سبور الجلد ، قد سمن من رعية العشب المونق فى الربيع حتى بدا كأنه إعدٌ اعداداً للعدو والانطلاق مثل فرس مغامر أعد للسباق فنجده يقول فى وصف هذا المكان من الصحراء :

تـنـشـطَتْهُ كـلُّ مِفْلاَةِ الـوَهَقْ مَضْبُورَةٍ قَرْوَاءَ هِرْجَـابٍ فُنُقْ (١)

مـائرة العـضـدين مـصـلات العنق مسودّة الأعطاف من وسم العرق (٢)

إذا الدليلُ اسـتـاف أخـلاق الطرق كـأنـهـا حـقـبـاءُ بلقـاءُ الزلق (٣)

أو جـادر الليـتَيْن مطوي العنق مـحـمـلجُ أدرج إدراج الطُّلَقْ (٤)

لـوَّحُ مـنـه بـعـد بُدْنٍ وسنـق من طول تعداءِ الربيع فى الأنقْ (٥)

تلويحك الضامر يطوي للسبق (٦)

فلاشك أننا نلاحظ من خلال هذا الوصف التقليدى الموروث من العصر الجاهلى ، أن هناك عاطفة اعجاب بهذه الناقة القوية الصلبة ولكنها عاطفة تشع من وراء هذه الحجب اللغوية التى تدل هى الأخرى على عاطفة إعجاب رؤبة بنفسه وبمقدرته الفائقة فى استيعاب اللغة القديمة والتعبير الدقيق بها عن موضوع ومعان سبق إليها منذ عصور بعيدة .

فقد بلغ الرجز مع رؤبة صورته المثالية فهو النمو الأخير لهذا العمل التعليمى

---

(١) تنشطته تجاوزته فى نشاط ، والمقلاة الناقة التى تبعد الخطوة تعلو فيه . والوهق المباراة والمواظبة فى السير ، والمضبورة المجتمعة الخلق المكتنزة . والقرواء : الطويلة الظهر ، والهرجاب : الطويلة الضخمة ، والفنق : الفتيّة الكثيرة اللحم .

(٢) مائرة العضدين يريد تحرك ضبعيها لسعة ابطيها ، والمصلات التى تنصلت بعنقها أن تتقدم ، وقيل التى انحسر شعر عنقها ، والأعطاق الجوانب والوسم العلامة .

(٣) استاف الطريق اختبره ، وأخلاق الطرق أراد الدارس منها ، والحقباء مؤنث الأحقب ، وهو حمار الوحش سمى بذلك لبياض فى خاصريته أو ركبه والزلق : عجز الدابة .

(٤) الجادر حمار الوحشى الذى جدر من الكدم والعض ، والليت صفحة العنق ، ومطوى العنق يريد أنه ضامر ، والمحملج صفة للحيل إذا فتل فتلاً شديداً ، صور به التفاف بدن الحمار الوحشى ، والطلق قيد من جلود .

(٥) لوّح غيّر ، والبدن السمن ، والسنق كراهة الطعام من كثرته ، يريد أن هذا الحمار قد شيم من طول ما عدا فيه الربيع في مكان أنيق .

(٦) وتلويحك الضامر يريد كما تلوّح الفرس الضامر استعداداً للسباق به ويطوى يجوّع ويضمر ديوانه ص١٠٤ .

الذى أرادته المدرسة اللغوية من جهة والذى استجاب له الشعراء وخاصة الرجّاز من جهة أخرى .

ففى العصر الأموى أصبحت الأرجوزة تؤلف من أجل حاجة المدرسة اللغوية وما تتبغيه من الشواهد والأمثال والأرجوزة الأموية من هذه الناحية تعد أوّل شعر تعليمى ظهر فى اللغة العربية ، وأصبح مكانها صُحُفالعلماء من مثل يونس وأبى عمرو بن العلاء ، يتعلمونها ويعلمونها الناس ليدلوا بها على مدى علمهم فى اللغة ، ومعرفتهم بألفاظها المستعملة والمهملة . وهذا هو معنى أنها شعر تعليمى . فرؤبة كان يصنع أراجيزه ويأتى فيها بكل أبدةٍ لغوية مسبوقة أو مبتكرة ، ليقدم ليونس وأمثاله من اللغويين مادة لغوية طريفة ، فنراه لم يكتف بإيراد الغريب الذى يحفظه أو بلغة قومه تميم وشواذّها ، بل فتح الباب الذى أوصده الشعراء ، وأوصدته كثرتهم وهو باب الخلق فى اللغة معتمداً على سليقته اللغوية ، التى طوعها فى هذا المجال تطويعاً ، ولعلّ ذلك ما جعل اللغويين يوقرونه أعظم التوقير وهو فى أراجيزه دائم الفخر بمعرفته اللغوية الفريدة ، ولاسيما فى ما هو من كل غريب . وقد حاول أبداً أن يرضى اللغويين فجاءهم بكل لفظ حوشى وكل أسلوب غير مألوف ومن ثم فقد كانت أراجيزه متوناً لتعليم اللغة وشواردها .

ومما لاشك فيه أن هذا تطور واسع فى تاريخ الشعر العربى إذ أخذت تخصّص بعض جوانبه لأغراض تعليمية ، وهى أغراض اتسعت بعد العصر الأموى فهؤلاء الرجاز وفى مقدمتهم رؤبة هم الذين أعدوا شعراء العصر العباسى لا للشعر التعليمى فحسب ، بل لاقتباسهم للغريب فى أشعارهم . " ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن

الأراجيز وخاصة عند رؤبة هى التى ألهمت ابن دريد حكاياته فى تعليم اللغة كما ألهمت بعد ذلك بديع الزمان الهمذانى والحريرى صنع مقاماتهم المعروفة " [1] .

وذلك لأن الغاية تعليمية فى كل من الأرجوزة والمقامة واتفقت الفكرة فيهما جميعاً ، إذ أريد بهما إلى تعليم اللغة مع أن الفارق أن المقامة صنعت وألفت للناشئة من الأدباء أما الأرجوزة كانت تألف للمتخصصين فى اللغة العربية من مثل أبى عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب وغيرهم ومن هنا كانت الأرجوزة أدق وأصعب وأكثر تعقيداً منها فى المقامة [2] .

وليس هذا كل ما قدمه رؤبة وأضرابه لمن جاءوا بعدهم ، فقد جعلوا الوحدة فى الأرجوزة الشطر لا البيت كما هو الحال والشأن فى القصيدة ، ومما لاشك فيه أن أصحاب الموشحات والمربعات والمخمسات قد تأثروا بهؤلاء الرجاز أيضا فكانوا يزاوجون فى الموشحة بين الأوزان ويخالفون بين القوافى ويعتمدون فى هذا الصنيع على نظام الأرجوزة فى التصريع ، فيجعلون الشطر وحدة فى الموشحة [3] ، على نحو ما صنع رؤبة ورجاز العصر الأموى فى أراجيزهم .

---

(١) تاريخ الأدب العربى العصر الإسلامى شوقى ضيف ص٤٠٤ .
(٢) التطور والتجديد فى الشعر الأموى شوقى ضيف ص٣٢٤ .
(٣) موسيقى الشعر إبراهيم أنيس ص٣٩٩ الطبعة الرابعة مكتبة الأنجلو المصرية .

المصادر والمراجع

١ - اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى محمد مصطفى هدارة الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ - ١٩٨١م المكتب الإسلامى .

٢ - أدب العرب فى عصر الجاهلية حسين الحاج حسن - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

٣ - الأدب العربى فى صدر الإسلام وعصر بنى أمية - أحمد عبد الغفار عبيد ١٩٦٦م .

٤ - الإصابة فى تمييز الصحابة - ابن حجر العسقلانى أحمد بن على حققه على محمد البيجاوى - دار نهضة مصر للطبع والنشر - الفجالة - القاهرة .

٥ - إعجاز القرآن للباقلانى - أبى بكر محمد بن الطيب ٤٠٣هـ تحقيق : السيد أحمد صقر - الطبعة الخامسة - دار المعارف .

٦ - الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى - دار إحياء التراث العربى .

٧ - الأمالى لأبى على اسماعيل بن القاسم القالى منشورات دار الآفاق - بيروت .

٨ - أمراء الشعراء السيد فرج - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢م .

٩ - أوزان الشعر العربى وموسيقاه أحمد عبد الغفار عبيد ١٩٦٦م .

١٠ - بناء القصيدة العربية يوسف حسين بكار - دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة ١٣٧٩هـ - ١٩٧٩م .

١١ - البيان والتبيين - أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ - تحقيق : عبد السلام محمد هارون - الطبعة الرابعة - الناشر : مكتبة الخانجى بالقاهرة .

١٢ - تاج العروس للسيد محمد مرتضى الزبيدى - طبعة : دار ليبيا للتوزيع والنشر بنى غازى الجماهيرية .

١٣ - تاريخ آداب العرب - مصطفى صادق الرافعى - الطبعة الثانية ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .

١٤ - تاريخ الأدب العربى أحمد حسن الزيات .

١٥ - تاريخ الأدب العربى - العصر الجاهلى - شوقى ضيف - ط : دار المعارف .

١٦ - تاريخ الأدب العربى - العصر الإسلامى - شوقى ضيف - الطبعة التاسعة - دار المعارف .

١٧ - تاريخ الأدب العربى كارل بروكلمان نقله إلى العربية - عبد الحليم النجار الطبعة الخامسة - دار المعارف .

١٨ - تاريخ الطبرى تاريخ الرسل والملوك لأبى جعفر بن جرير الطبرى ت : محمد أبو الفضل ابراهيم الطبعة الرابعة - دار المعارف .

١٩ - التطور والتجديد فى الشعر الأموى - شوقى ضيف الطبعة السابعة - دار المعارف .

٢٠ - تهذيب تاريخ دمشق الكبير للإمام الحافظ المؤرخ ثقة الدين أبو القاسم على بن حسن بن هبة الله الشافعى المعروف بابن عساكر - هذبه ورتبه الشيخ : عبد القادر بدران - الطبعة الثانية : ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م -د دار المسيرة - بيروت .

٢١ - الجامع فى تاريخ الأدب العربى القديم - حنا الفاخورى الطبعة الأولى - دار الجيل بيروت .

٢٢ - الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى محمد عبد المنعم خفاجى الطبعة الأولى بمطبعة حجازى ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م .

٢٣ - خزانة الأدب ولب لسان العرب عبد القادر بن عمر البغدادى تحقيق عبد السلام محمد هارون - مكتبة الخانجى بالقاهرة .

٢٤ - الخصائص صنعة أبى الفتح عثمان بن جنى تحقيق : محمد على البيجاوى دار الكتاب العربى - بيروت - لبنان .

٢٥ - خصوبة القصيدة الجاهلية ومعانيها المتجددة (دراسة وتحليل - ونقد) محمد صادق حسن عبد الله - دار الفكر العربى .

٢٦ - ديوان الأخطل تحقيق الأب أنطون صالحانى اليسوعى - المطبعة الكاثوليكية - بيروت ١٨٩١م .

٢٧ - ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت (١٨٦ - ٢٤٦هـ) تحقيق : نعمان محمد أمين طه - الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م الناشر : مكتبة الخانجى بالقاهرة .

٢٨ - ديوان ذى الرمة طبعة المكتب الإسلامى للطباعة والنشر - بيروت - الطبعة الثانية - ١٩٦٤م .

٢٩ - الروائع من الأدب فى العصر الجاهلى يوسف خليف الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣م .

٣٠ - شرح ديوان امرىء القيس ومعه أخبار المراقسة وأشعارهم فى الجاهلية وصدر الإسلام . تأليف : حسن السندوبى - الطبعة السابعة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٣م المكتبة الثقافية - بيروت - لبنان .

٣١ – الشعر والشعراء أبى محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة دار الثقافة – بيروت – لبنان .

٣٢ – طبقات الشعراء لابن المعتز تحقيق : عبد الستار أحمد فراج – الطبعة الرابعة – دار المعارف .

٣٣ – طبقات فحول الشعراء محمد بن سلام الجمحى تحقيق محمود محمد شاكر .

٣٤ – الطرائف الأدبية عبد العزيز الميمنى طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

٣٥ – العمدة فى صناعة الشعر ونقده تأليف أبى على الحسن بن رشيق القيروانى المتوفى فى سنة ٤٦٣هـ تحقيق وشرح مفيد محمد قميحة الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م دار الكتب العلمية – بيروت لبنان .

٣٦ – فصول فى الشعر ونقده شوقى ضيف – الطبعة الثانية – دار المعارف .

٣٧ – فن الموسيقى فى الشعر العربى (دراسة عروضية أدبية لشعرنا العربى قديماً وحديثاً) ، محمود على السمان – الجهاز المركزى للكتب الجامعية ١٩٧٧ – ١٩٧٨م .

٣٨ – الفن ومذاهبه فى الشعر العربى شوقى ضيف – دار المعارف .

٣٩ – فى الشعر الإسلامى والأموى عبد القادر القط طبعة دار النهضة العربية للطباعة والنشر – بيروت .

٤٠ – الكامل فى اللغة والأدب للعلامة أبى العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد النحوى المتوفى سنة ٢٨٥ هـ الناشر مؤسسة المعارف بيروت .

٤١ – لسان العرب لابن منظور المصرى صادر – بيروت ١٩٥٥م .

٤٢ - المؤتلف والمختلف فى أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم للإمام أبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى الطبعة الأولى مكتبة القدس - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

٤٣ - مختصر سيرة ابن هشام (السيرة النبوية) إعداد عفيف الزغبى مراجعة عبد الحميد الأحدب الطبعة السادسة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م دار النفائس - بيروت .

٤٤ - المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها عبد الله الطيب المرزوق الطبعة الثانية ١٩٧٠م دار الفكر .

٤٥ - معجم الأدباء لياقوت الحموى الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

٤٦ - موسيقى الشعر إبراهيم أنيس الطبعة الرابعة - مكتبة الأنجلو المصرية .

٤٧ - الموشح لأبى عبيد الله محمد بن عمران المرزبانى المطبعة السلفية القاهرة - الطبعة الثانية ١٣٨٥هـ .

٤٨ - الهجاء والهجاءون فى الجاهلية محمد محمد حسين دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت الطبعة الثالثة ١٣٨٩هـ - ١٩٧٠م .

٤٩ - الوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى على بن عبد العزيز الجرجانى تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - على محمد البيجاوى - طبع مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه .

٥٠ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبى العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابن أبى بكر بن خلكان حققه إحسان عباس دار الصحافة - بيروت لبنان .